# عادات وتقاليد الشعوب القديمة

تأليف

دكتور فاضل عبد الواحد
استاذ في التاريخ القديم
كلية الاداب / جامعة بغداد

دكتور عامر سليمان
استاذ في التاريخ القديم
كلية الاداب / جامعة الموصل

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م

فجر السلالات» ، ويبدو ان بلاد آشور كانت قد وقعت تحت النفوذ السياسي والحضاري للدويلات التي قامت في الجنوب وان كانت معلوماتنا عن هذه الفترة قليلة وغامضة . وبانتهاء فجر السلالات في الجنوب وقيام الدولة الاكدية استمر نفوذ الدولة الاكدية السياسي والحضاري على بلاد آشور وربما كانت مدينة آشور احد المراكز الادارية الاكدية المهمة في القسم الشمالي من العراق كما يحتمل ان حكام بلاد آشور في هذه الفترة كانوا من العناصر الاكدية .

وقد عثر على عدد من القطع الفنية الرائعة في مدينة آشور ونينوى تشير الى التأثيرات الاكدية على الفن الاشوري . ويأتي في مقدمة ذلك رأس رجل من البرونز المسبوك الذي يعتقد بأنه يمثل رأس سرجون الاكدي او راس حفيده نرام – سن ، وتمثال شاب جالس عليه كتابة تحمل اسم نرام – سن .

وعند تأسيس سلالة اور الثالثة في اعقاب طرد الاقوام الكوتية من بلاد بابل وقعت بلاد آشور ثانية تحت نفوذ حكام وملوك سلالة اور الثالثة وكانت مدينة آشور احدى المقاطعات التابعة لامبراطورية اور الثالثة . وبعد سقوط امبراطورية اور واستقلال العديد من المدن والاقاليم في العراق ، كانت آشور من بين المدن التي استقلت عن التبعية السومرية واقامت لها سلالة محلية كانت بداية للعصر الاشوري القديم .

**(٣) العصر الاشوري القديم :**

يبدأ هذا العصر من سقوط سلالة اور الثالثة في الجنوب في أواخر الالف الثالث قبل الميلاد ويستمر حتى اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ( حدود ١٥٠٠ ق.م. ) . تميزت هذه الفترة من تاريخ العراق القديم بتدفق الاقوام الامورية العربية القديمة وتأسيسها عدداً من السلالات الحاكمة في مختلف انحاء العراق كان من بينها السلالة التي قامت في بلاد آشور . غير ان اهم سلالة اشورية حكمت في هذه الفترة هي سلالة شمشي – ادد التي عاصرت في عهد مؤسسها فترة حكم حمورابي في بلاد بابل . وكان لبلاد أشور في هذه الفترة علاقات

علاقات تجارية واسعة مع آسيا الصغرى حيث كان التجار الاشوريون قد اقاموا لهم مستطوطنات تجارية في آسيا الصغرى كشفت عن اثارها التنقيبات الاثرية الحديثة في منطقة كبدوكيا . كما اقامت بلاد اشور في عهد سلالة شمشي — ادد علاقات صداقة وطيدة مع بعض الممالك السورية في حين كانت علاقاتها عدائية مع مملكة ماري على الفرات انتهت بسيطرة اشور عليها . وقد صادف في هذه الفترة تعاظم قوة حمورابي وسياسته الهادفة إلى توحيد البلاد ، فوقعت بلاد آشور مع غيرها من الممالك والدول المستقلة في العراق تحت نفوذ وسيطرة حمورابي ، وظلت كذلك طوال فترة حكم حمورابي . وفي عهد خلفائه ، ربما استقلت بلاد آشور واقامت لها حكماً محلياً غير أن معلوماتنا عن ذلك قليلة.

**(٤) العصر الاشوري الوسيط :**

في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ( حدود ١٥٢١ق ، م ) ، اعتلى العرش الاشوري الملك بوزور — آشور وعد عهده بداية للعهد الاشوري الوسيط الذي استمر حتى اواخر القرن العاشر قبل الميلاد (٩١١ق . م. )

شهدت بلاد آشور خلال هذه الفترة الطويلة من تاريخها السياسي والحضاري تقلبات سياسية واجتماعية واقتصادية كثيرة واحداثاً هامة اثرت بها تأثيراً مباشراً وواضحاً . ولم تكن بلاد آشور بمعزل عما يحدث في بقية انحاء الشرق الادنى القديم بل كانت جزءاً من تلك الاحداث وعاملاً مؤثراً فيها لوقوعها في قلب المنطقة .

ففي بلاد بابل ، الجزء الجنوبي من العراق ، كان الكاشيون قد اقاموا سلالة جديدة في اواخر القرن السادس عشر استمر حكمها مدة تقرب من اربعة قرون، وكانت علاقتها مع آشور متارجحة بين الصداقة والعداء وبين السلم والحرب . وفي آسيا الصغرى ، كانت الدولة الحثية قد نمت وعظم شانها وبدأت تؤثر تأثيراً كبيراً على سير الاحداث في سوريا وآشور ومصر . كما شهدت هذه الفترة تأسيس الدولة الميتانية التي شملت المنطقة من بحيرة وان وحتى اواسط نهر الفرات ومن جبال زاجروس وحتى الساحل السوري، وكانت بلاد آشور

البلدان التي وقعت تحت نفوذها فترة تقرب من مائة سنة . اما في مصر، كان تأسيس الدولة المصرية الحديثة وقيام السلالة الثامنة عشرة، وما رافق ذلك من تغيرات في المعتقدات الدينية اثر الثورة الدينية التي قام بها الفرعون اخناتون، له آثاره الواضحة في منطقة الشرق الادنى بصورة عامة . وكان الصراع بين هذه القوى الرئيسة في الشرق الادنى على اشده للسيطرة على الطرق التجارية ومصادر مواد الخام ولاسيما تلك الواقعة في سوريا واعالي مابين النهرين ، وكان على آشور اما ان تواجه هذه القوى وتقف امامها اوانها تستسلم للنفوذ الخارجي وتفقد استقلالها .وقد استغل الاشوريون الفرص وعملوا على تقوية جبهتهم الداخلية ونبذوا عنهم سيطرة الدولة الميتانية واقاموا علاقات صداقة مع بعض القوى المؤثرة في المنطقة كمصر وبلاد بابل ووقفوا بحزم امام الضغوط القوية التي مارستها القبائل الجبلية في الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية والقبائل الارامية ، وهي من الاقوام العربية القديمة التي كانت تجوب بادية الشام والعراق، في الغرب. وخلقت هذه الظروف الصعبة والحرجة حكاماً وشخصيات قوية خبرتهم التجارب وحنكتهم الهزات السياسية المتلاحقة ومكنتهم من تثبيت سلطان الدولة الاشورية والتغلب على الاعداء وازالة الاخطار التي تهدد كيان الاشوريين بل تمكنوا من مد نفوذهم إلى المناطق المجاورة والسيطرة على الطرق التجارية التي كانت تعد العمود الفقري بالنسبة للحياة الاقتصادية في بلاد آشور . واضطر الآشوريون لتحقيق ذلك إلى القيام بالحملات العسكرية العديدة واتباع سياسة جديدة في ادارة الاقاليم المفتوحة والقضاء على كل تمرد أو عصيان يحاول النيل من الدولة الاشورية بكل قسوة . وكان من بين الشخصيات البارزة التي ظهرت في هذه الفترة الملك شيلمنصر الاول (١٢٧٤ — ١٢٤٥ق.م) الذي قام بانجازات عسكرية وسياسية رائعة واضاف لها انجازات معمارية ضخمة تمثلت بتأسيسه مدينة كلخو(النمرود) عاصمة للمملكة. اما تجلا تبليزر الاول (١١١٥ — ١٠٧٧ ق.م) فقد استطاع ان يرفع من شان الدولة الآشورية

ويجعلها من القوى الكبرى المؤثرة في الشرق الادنى القديم فصد هجوم الاقوام الجبلية والقبائل الارامية وتوغل بجيوشه إلى مناطق بعيدة في آسيا الصغرى وسوريا واتبع سياسة ادارية وعسكرية ناجحة فكان من نتائج ذلك ان عم الرخاء الاقتصادي والازدهار الحضاري في بلاد آشور ، غير ان غياب مثل هذه الشخصيات القوية وتزايد ضغوط الاقوام الجبلية والارامية وانقطاع العديد من طرق التجارة أدى إلى دخول بلاد آشور فترة ضعف وتدهور سياسي واقتصادي ليست بالقصيرة حتى اعتلى العرش الآشوري الملك ادد — نراري الثاني عام ٩١١ق .م. وعد حكمه بداية للعصر الآشوي الحديث .

## (٥) العصر الاشوري الحديث

وصل الآشوريون في عهدهم الحديث الذي شغل بقية تاريخ الآشوريين السياسي قمة مجدهم السياسي وازدهارهم الحضاري وعنفوان قوتهم العسكرية وامتدت امبراطوريتهم لتشمل معظم بلدان الشرق الادنى القديم تقريباً فضمت مصر وفلسطين وسوريا وبعض اجزاء اسيا الصغرى كما ضمت بلاد عيلام وبابل ، وغدت الامبراطورية الآشورية في القرن الثامن والسابع قبل الميلاد اعظم واكبر قوة مؤثرة في المنطقة قاطبة ودانت لها جميع الدول والممالك. ساعد الآشوريين في تبؤ هذا المركز المرموق الظروف السياسية العامة التي كانت تمر بها بلدان الشرق الادنى القديم. فغياب القوى الكبرى التي كانت تؤثر في سير الاحداث في العهد الآشوري الوسيط وتمنع الآشوريين من بسط نفوذهم وازدياد قوتهم ، كالدولة الحثية والدولة الميتانية والامبراطورية المصرية الحديثة والسلالة الكاشية ، وتضاؤل قوتها وانهيار كياناتها السياسية فسح المجال امام الآشوريين ليبرزوا في المنطقة ويفرضوا شخصيتهم وسيطرتهم .ومع ذلك ،ظهرت في المنطقة قوى أخرى هددت كيان الآشوريين وانذرت بزواله منها القبائل الجبلية والقبائل الارامية والاقوام العيلامية ، غير أن الآشوريين اثبتوا بانهم اصلب عودا واقوى شكيمة فتمكنوا من تحقيق اهدافهم في السيطرة على جميع البلاد ومد نفوذهم

إلى البلدان المجاورة واتبعوا في سبيل ذلك سياسة عسكرية وادارية اثبتت الاحداث بانها كانت السياسة الناجحة والوسائل الكفيلة لضمان امن واستقلال الدولة الآشورية .

ولم تكن الظروف السياسية العامة والاساليب العسكرية والسياسية التي اتبعها الآشوريون هي العامل الاساس في تحقيق الانتصارات المتلاحقة والسيطرة على الموقف حيث كانت مثل هذه الظروف متوفرة لاقوام اخرى سبقت الآشوريين لكنها لم تتمكن من اقامة دولة قوية كبرى كالدولة الآشورية ، بل كان لقوة وصلابة الفرد الآشوري واصراره على تنفيذ السياسة الآشورية تنفيذاً دقيقاً كفوءاً اثره الفعال في تحقيق الانتصارات : وقد عاب بعض المؤرخين المحدثين على الآشوريين سياستهم العسكرية بانها سياسة اتصفت بالظلم والطغيان واعتمدت القتل الجماعي والتعذيب وتهجير السكان ونسوا او تناسوا المنجزات الحضارية الرائعة التي حققها الآشوريون خلال فترة حكمهم وان الحملات العسكرية التي قام بها الآشوريون لم تكن تستهدف السكان المحليين بل انها كانت موجهة ضد القوات العسكرية المتمردة كما اغفلوا ذكر الاسباب التي دفعت الآشوريين لاتباع سياسة قاسية ضد المتمردين والعصاة وهي المحافظة على أمن وسلامة حدود الدولة الآشورية وضمان استقلالها وسيطرتها على طرقها التجارية وصد هجوم القبائل التي كانت تهدد حدودها .

استغرق العصر الآشوري الحديث ثلاثة قرون تقريباً مليئة بالاحداث العسكرية والسياسية وبالمنجزات الحضارية الرائعة ويمكن تقسيم هذه الفترة المزدحمة بالاحداث إلى قسمين رئيسين شمل الاول عهد الامبراطورية الآشورية الاولى (٩١١ — ٧٤٥ ق .م) في حين شمل الثاني عهد الامبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥ — ٦١٢ ق .م ).

برز في القسم الاول من العصر الآشوري الحديث الملك اشورناصربال الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م) الذي اشتهر بفتوحاته العسكرية وقضاءه على التمردات التي قامت ضد الدولة الآشورية في المدن السورية والمنطقة الجبلية كما خلدت أعمال هذا الملك اثار مدينة كلخو (النمرود) التي أعاد بناءها واتخذها عاصمة لملكه وقاعدة عسكرية تخرج منها الحملات العسكرية إلى مختلف الجبهات وزين قصورها ومعابدها بمنحوتات حجرية ضخمة صورت مشاهد عسكرية ودينية مختلفة ، وكانت اثار النمرود من أهم الاثار المكتشفة في مدن العراق القديمة غصت بها قاعات متاحف العالم الحديث ولاسيما المتحف البريطاني في لندن ومتحف اللوفر في باريس . واتبع شيلمنصر الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ق.م) السياسة نفسها في الفتح العسكري وزاد في ذلك فوصل إلى مناطق بعيدة لم يصلها الملوك الذين سبقوه كما اضاف إلى انجازاته العسكرية اعمالا عمرانية ضخمة شيدها في مدينة النمرود .

وفي اواخر القسم الاول من العهد الاشوري الحديث تولت العرش الاشوري الملكة شمو رامات التي ورد اسمها في المصادر الاغريقية على هيئة سميراميس و كانت وصية على ابنها الصغير مدة خمس سنوات وعلى الرغم من عدم اهمية فترة حكمها من الناحيتين العسكرية والسياسية الا أن الكتاب الاغريق نسجوا حولها قصصاً واساطير كثيرة وضعتها في مصاف اعاظم شخصيات العالم القديم . وكانت الفترة الاخيرة من العصر الاشوري الحديث فترة ضعف وتدهور سياسي واقتصادي عم بلاد اشور والاقاليم التابعة لها واستمر حتى قيام الامبراطورية الاشورية الثانية. قام تجلاتبليزر الثالث بتأسيس امبراطورية جديدة تمكنت من اعادة تنظيم بلاد اشور بعد فترة الضعف التي مرت بها واعاد لبلاد اشور سالف قوتها وعظمتها . وقد اتبع لتحقيق ذلك اساليب ادارية جديدة اعتمدت على تقسيم البلاد الى عدد من المقاطعات والاقاليم يضم كل منها عدداً من الوحدات الادارية الاصغر والاصغر وهكذا ، وكان حاكم كل مقاطعة ، وكذلك حاكم كل وحدة ادارية مهما كانت صغيرة ، يرتبط بالحاكم الذي يليه من حيث

وكانت حملة سرجون الثامنة من اشهر الحملات العسكرية التي اقتحمت المنطقة وثبتت النفوذ الاشوري فيها .

ومن الناحية الحضارية ، أزدهرت مختلف الفنون والمعارف ونشطت التجارة الداخلية والخارجية وانهالت على البلاد الغنائم والموارد فعم الرخاء ونشطت الحركة الفنية . وقد جلب الملوك الاشوريون عدداً كبيراً من الصناع والحرفيين السوريين الذين ساهموا في بناء وتعمير المدن والقصور والمعابد ونقلوا الفنون السورية الى بلاد اشور كما جلبت مختلف انواع الحيوانات والنباتات من البلدان المفتوحة واقيمت حدائق لها في مدينة نينوى لتربيتها . وشرع سرجون بتشييد عاصمة جديدة لملكه هي مدينة دور –شروكين (خرصباد حالياً) وامضى تسع سنوات في بنائها وانتقل اليها في السنة الاخيرة من حكمه وشيد فيها قصراً ضخماً زينه بالمنحوتات الجدارية والثيران والاسود المجنحة واقام معبداً يتناسب وضخامة المدينة وسور المدينةبسور كبير يحميها هجمات الاعداء ، وفي عهد ابنه سنحاريب هجرت المدينة الى نينوى واعاد سنحاريب بناء مدينة نينوى ووسع من قصورها ومعابدها وسورها وجعل منها عاصمة كبرى تليق بعظمة ملكه وجلب اليها المياه من مناطق بعيدة عبر قناة حجرية وغدت نينوى اوسع واعظم مدينة في الشرق القديم . وزاد ابنه اسرحدون وحفيدة اشور بانيبال في ابنية نينوى ووسعوا قصورها ومعابدها كما اهتموا ببناء وتعمير المدن الاشورية الاخرى لاسيما مدينة اشور . ولعل اهم الاثار التي خلفها لنا اشور بانيبال آخر ملوك السلالة السرجونية هي مكتبته في مدينة نينوى التي ضمت اكثر من خمس وعشرين الف رقيم طيني تناولت مختلف المواضيع والقت الضوء على كثير من الاوجه الحضارية في العصر الاشوري الحديث والعصور السابقة له

كان انهيار الدولة الاشورية في اواخر القرن السابع قبل الميلاد،ففي اواخر عصر اشور بانيبال عم الاضطراب الدولة الاشورية وساد الغموض وانقطعت اخبار الملك بعد ان كان قد قضى على اخيه في بابل وقام بعدة حملات عسكرية الى الجبهات المختلفة . واستغلت الفرصة الاقوام الكلدانية التي كانت تقطن

المركز من جهة، كما كان له حق الاتصال بالملك والسلطة المركزية بشكل مباشر من جهة أخرى . كما اتبع نظام بريدي دقيق يصل بين مختلف الوحدات والاقاليم ويجعل الحكـــومة المركزية على اتصال دائم بكافة ارجاء الامبراطورية وقد رافق الاصلاحات – الادارية حملات عسكرية تضم قوات عسكرية منظمة حققت الانتصارات المتلاحقة . وهكذا عادت قوة الدولة الاشورية خلال فترة وجيزة .

بعد وفاة تجلاتبليزر ببضع سنوات اعتلى العرش الملك الشهير سرجون الثاني (٧٢١ – ٧٠٥ق.م) الذي كان مؤسساً لسلالة جديدة استمر حكمها حتى زوال الكيان السياسي للدولة الاشورية وسقوط نينوى عام ٦١٢ق.م . وكانت فترة حكم السلالة السرجونية من ازهى العصور التي مرت على تاريخ الاشوريين قاطبة سواء من الناحية الحضارية او العسكرية او السياسية . وامتدت سلطة الدولة الاشورية حتى وصلت في عهد اسرحدون حفيد سرجون الى وادي النيل لاول مرة واجتاحت الجيوش الاشورية مصر العليا والسفلى ونصبت عليها ملكاً موالياً للسياسة الاشورية تدعمه قوات عسكرية مرابطة في مصر كما امكن السيطرة على جميع المدن السورية على الرغم من التمردات المتكررة التي قامت بها تلك المدن ضد النفوذ الاشوري وذلك بتحريض من مصر حينا ومن مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا احياناً اخرى . وفي عهد الملك سرجون قام الجيش الاشوري بمحاصرة السامرة عاصمة مملكة اسرائيل وفتحها وقضى نهائياً على مملكة اسرائيل واجلى سكانها الى مناطق اخرى بينما خضعت مملكة يهوذا للملك سنحاريب وقدمت له الجزية والولاء والطاعة ، اما بلاد بابل ، فقد وقعت تحت الحكم الاشوري المباشر بعد محاولات العصيان التي قامت بها القبائل الكلدانية وقضى سنحاريب على المتمردين ودمر مدينة بابل والحقها بالعرش الاشوري .

وفي الجبهات الشرقية والشمالية الشرقية جهزت حملات متتابعة الى المنطقة وامكن السيطرة على تحركات القبائل الجبلية ولا سيما دولة اورارطو ،

## المبحث الثالث

# المجتمع

عاش الانسان العراقي القديم عصورا طويلة استغرقت عدة الاف من السنين قبل ان تنتظم حياته في مجتمعات انسانية محددة المعالم . فكان يعيش في عصره الحجري القديم حياة بدائية في جماعات صغيرة تسكن في الكهوف والمغاور الجبلية منعزلة عن بعضها البعض ومنذ .الالف العاشر قبل الميلاد ، او التاسع ، بدأ الانسان يستقر إلى جانب حقوله الزراعيـــة الصغيرة ويشيد مساكنه من الطين الطرى ويقيم مستوطناته البسيطة وينظم حياته الجديدة التي اعتمدت على انتاج القوت وانتقل تبعا لذلك من المناطق الجبلية إلى المناطق السهلة قريباً من وديان الأنهار واستوطن الجزء الجنوبي من العراق منذ الالف الخامس قبـل الميلاد واقام مستوطناته على ضفاف دجلة والفرات . وما لبثت تلك المستوطنات الصغيرة ان نمت واتسعت وزاد عدد سكانها فاصبحت قرى صغيرة تطورت في الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد لتصبح مدنا كبيرة ومراكز حضارية مهمة انبعثت منها اهم المقومات الحضارية التي قامت عليها حضارة العراق الناضجة في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد.

وكان من نتائج اتساع المدن وزيادة عـدد سكانها واختلاف اعمالهم وظهور بوادر العلاقات التجارية والزراعية ، ان تعقدت الحياة وتعقدت معها علاقات الافراد مع بعضهم البعض ، فنمت العادات والتقاليد وغدت اعرافا يسير عليها افراد المجتمع وكان ينظر باستهجان إلى كل من يخرج عن تلك الاعراف والتقاليد . ومنذ اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، تبلورت الاعراف والتقاليد والنظـم السائدة في قوانين مدونة اصدرها الملوك والحكام وضمنوها مختلف الاحكام القانونية وفرضوا تنفيذها وحاسبوا الخارجين عنها . وقد حددت القوانين، كما كانت الاعراف والتقاليد تحدد ايضا ، علاقات الافراد بعضهم بالبعض الاخر وثبتت حقوقهم وواجباتهم والتزاماتهم

القديم والتنظيم في كثير من المجتمعات الحديثة ومنها المجتمع العراقي . لاسيما فيما يتعلق بالاحوال الشخصية وتكوين الاسرة ومقوماتها الاساسية

وعلى الرغم من الاختلافات البسيطة في تنظيم المجتمع العراقي القديم وتكوينه في الفترات التاريخية المختلفة ، الا أنه من الممكن القول ان ماجاء في قوانين العهد البابلي القديم ، وعلى راسها قانون حمورابي ، من مبادىء وقواعد واحكام ، يمثل بصورة عامة، ماكان عليه المجتمع العراقي القديم .

كان المجتمع العراقي القديم ، كغيره من المجتمعات قديمها وحديثها ، يتالف من عدة فئات من الناس ، منها الفئة الحاكمة والمتنفذة او المسيطرة على الامور الدنيوية او الدينية ، ومنها المحكومة المسيرة وفق ماتمليه عليها مصلحة الطبقة الحاكمة ، ومنها المملوكة . ويأتي في مقدمة الفئة الحاكمة الاسرة المالكة ، او الحاكمة ، التي اكتسبت على مر العصور قدسية خاصة باعتبار الملك، كما سبق واشرنا، كان في نظر العراقيين القدماء يمثل الالهة على الارض وينوب عنها في كثير من الامور . ويلي الاسرة الحاكمة فئة النبلاء واصحاب الاقطاعات الكبيرة وكبار الكهنة والموظفين وقادة الجيش والمتنفذين سياسيا او اقتصاديا او اجتماعياً . وكانت الفئة المحكومة تتالف من جمهور المواطنين والرعايا العاملين في الحقول والمزارع والمشاغل والمحلات التجارية وعامة المواطنين . واخيرا ، هناك الفئة المملوكة وهم الارقاء ، غير أنهم لم يؤلفوا نسبة كبيرة ذات تأثير واضح في تكوين المجتمع في معظم فتراته التاريخية وقد حاولت جميع الديانات السماوية ومعظم القوانين البشرية ازالة هذا التمايز وتقليل الفوارق بين الفئات المختلفة ، ونجح بعضها في هذا المضمار نجاحا كبيرا ، ولكن لفترة محدودة كالدين الاسلامي ، الا أن الاتجاه العام في المجتمعات كافة ظل يميز بين فئات المجتمع المختلفة . والمقصود بمصطلح «الفئة الاجتماعية» هو غير المقصود بـ «الطبقة الاجتماعية» ، فالمصطلح الاول يقصد به مجموعة من الافراد او قطاع معين من المجتمع اكسبتهم صفتهم الدينية او الوظيفية وامكاناتهم المادية مركزاً اجتماعياً معينا . وقد يزول هذا المركز بزوال

كل تجاه الآخر وتجاه السلطة وكان نصيب «الاحوال الشخصية» من زواج وطلاق وتبني وارث وعلاقات اجتماعية اخرى ، جزءا كبيرا من نصوص المواد القانونية حتى ان قانون حمورابي وحده خصص مايقرب من سبعين مادة قانونية من مجموع ٢٨٢ مادة لمعالجة الاحوال الشخصية في حين كانت معظم المواد القانونية التي ذكرها اللوح الاول من القوانين الاشورية الوسيطة، وعددها يقرب من ستين مادة ، خاص بالاحوال الشخصية ايضا ولاسيما ماله علاقة بالنساء .

وتعتبر القوانين العراقية المكتشفة حتى الان ، وهي قانون اور – نمو (اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ) وقانون لبت – عشتار ( مطلع الالف الثاني قبل الميلاد ) وقانون اشنونا ( مسطلع الالف الثاني قبل الميلاد أيضا) وقانون حمورابي ( القرن الثامن عشر قبل الميلاد) والقوانين الاشورية الوسيطة ( القرن الخامس عشر او الرابع عشر قبـــل الميلاد ) من اكمل وانضج واقدم القوانين المكتشفة في العالم حتى الان (١) .

ويستفاد من دراسة القوانين المدونة المذكورة ومن الوثائق اليومية التي كشف عن مئات الالاف منها في مدن العراق القديمة ، بان المجتمع العراقي القديم ولاسيما في العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق . م تقريبا) ، كان على درجة كبيرة من التعقيد والتنظيم وانه كان يضاهي المجتمعات القديمة الاخرى في تنظيمه ، كالمجتمع اليوناني والروماني ، التي برزت على مسرح التاريخ بعد مئات من السنين ان لم يفقها في انسانية المبادىء القانونية التي نظمت المجتمع . بل بالامكان القيـــام بمقارنة بين التنظيم الاجتماعـــي العراقي

---

(١) حول القوانين العراقية القديمة، ترجمتها وتحليل موادها انظر : د. فوزي رشيد ، شرائع العراق القديمة، بغداد، ١٩٧٣ ، د. عامر سليمان، القانون في العراق القديم، الجزء الاول، موصل ١٩٧٧.

الصفة او الامكانات ، فاذا تنحي الكاهن عن معبده والموظف عن وظيفته وتقلصت امكانات الرجل الغني انتقل من الفئة المسيطرة او المتنفذة إلى الفئة المحكومة ، وقد يبرز افراد من الفئة المحكومة يكتسبوا تلك الصفات ويصبحوا من الفئة الحاكمة وهكذا. اما «الطبقة الاجتماعية» فيقصد بها مجموعة معينة من المواطنين لها حقوق وواجبات والتزامات وامتيازات محددة قانونا ، او عرفا، ولها احكامها القانونية الخاصة ويكون الانتماء اليها وراثيا ومقفلا ولا يسمح لاى فرد من طبقة اجتماعية معينة الانتقال إلى الطبقة الاخرى الا في حالات وظروف محددة قانونا خلافا لما هي الحال بالنسبة لتغير فئة الفرد.

وعلى هذا الاساس ، وعلى الرغم من ان المجتمع العراقي القديم كان يتالف من فئات عديدة الا أنه كان ينتظـــم تحت لواء طبقتين اجتماعيتين رئيستين فقط هما «طبقة الاحرار » و« طبقة الارقاء او العبيد ». وضمت الطبقة الاولى جميع الفئات الاجتماعية باستثناء الفئة الاخيرة ؛وهي فئة المملوكين التي تكون الطبقة الثانية . ومع ذلك ، فهناك بعض الباحثين من يرى بانه كان هناك طبقة اجتماعية ثالثة تتوسط هاتين الطبقتين وان حرية الطبقة الوسطى كانت مقيدة في حين كانت حرية طبقة الارقاء معدومة ويعتمد اصحاب هذا الرأى على ماجاء في القوانين المدونة ، وعلى وجه التحديد قانون اشنونا وقانون حمورابي من ذكر لبعض التسميات التي اطلقت للدلالة عـــلى فئات معينة من فئات المواطنين ، حيث ورد ذكر « اويلم » ( ويعني رجل ) الذي فُسر بانه يدل على الفرد من الطبقة العليا ومصطلح « مشكينُم » الذي فسر بانه يعني الفرد من الطبقة الوسطى . غير ان دراسة وتحليل ومقارنة المواد القانونية المختلفة التي ذكرت هذين المصطلحين تشير خلاف ذلك وتؤكد ان المقصود من كلا المصطلحين هو الاشارة إلى طبقة الاحرار غير انه قصد من المصطلح الاول الفئة الغنية في حين استخدم المصطلح الثاني للدلالة على الفرد من طبقة الاحرار من غير المتمكنين ماديا ، اى الفقراء او المساكين . لذلك لم تذكر المواد القانونية المختلفة المصطلح «مشكينُم» الا حينما تكون هناك علاقة

مادية للشخص. ويظهر من دراسة قانون حمورابي ان المشرع قد حاول دا... التخفيف عن هذه الفئة من الاحرار ماديا واخذ وضعها المادي بنظر الاعتبار عند فرض العقوبات وتحديد الاحكام تماماً كما تفعل القوانين الحديثة المتطورة في اصدارها الاحكام والاخذ بنظر الاعتبار هوية الشخص وحالته الاقتصادية لاسيما فيما يتعلق بالاحوال الشخصية (١) .

اما طبقة الارقاء، فكان الفرد منها يسمى باللغة الاكدية « وردُم » ان كان من الذكراً و«أمتُم» ان كان من الاناث (وهي تقابل الكلمة العربية امة). وكان عدد افراد طبقة العبيد في العصور المختلفة قليل وبصورة خاصة في الفترات الاولى ثم زاد العدد بالتدريج نتيجة ازدياد الحروب الخارجية واسر المزيد من الاعداء الذين استعبدوا وكانت اعمال طبقة العبيد بصورة عامة اعمال زراعية اضافة إلى قيام الاناث منهم بالعمل في البيوت في بعض الصناعات والحرف اليدوية وخدمة اصحاب الدار وتيسير الاناث للذكور من الاسياد . وكان العبيد يباعون ويشترون ويعدون من املاك اسيادهم وكانت اسعارهم تتناسب وصفاتهم الجسمية والخلقية وجنسهم وعمرهم اضافة إلى بعض الامور الاخرى كما كانت تختلف من فترة إلى اخرى .

وكان المجتمع يحصل على العبيد من مصدرين رئيسين الاول من خارج القطر من اسرى الحروب الكثيرين الذين كـــانوا يوزعون على القصور والمعابد او يباعون في الاسواق ، ومن العبيد ، ولاسيما الاماء، الذين يشتريهم التجار من البلدان الاجنبية ويبيعوهم إلى الاسر والافراد . اما المصدر الداخلي فكان يضم اولئك الارقاء بالوراثة اي المولودين لابوين من طبقة الارقاء، كما يشمل الاحرار الفقراء الذين يؤولون إلى العبودية نتيجة فقرهم واضطرارهم بيع اولادهم او نسائهم او حتى انفسهم لفترة زمنية محددة ريثما يتم سداد ديونهم، كما يشمل الاطفال غير الشرعيين الذين

---

(١) حول تفصيل هذا الرأي انظر: د. عامر سليمان، القانون في العراق القديم، الجزء الأول، موصل ١٩٧٧، صفحة ٦٣ – ٨٣

يرمون على ابواب المعابد وفي الطرقات واولاد الفقراء الذين لا يتمكنون من تربية اطفالهم. اضافة إلى ذلك ، كان بالامكان استعباد الحر في حالة ارتكابه جرائم معينة حدد القانون عقوبتها بالعبودية مثل عقوق الوالدين وانكار الزوجة لزوجها .

ولم يكن الارقاء يتمتعون بشخصية كاملة طالما كانوا ملكا لاسيادهم وشيئا من الاشياء التي يملكونها ، لذلك كان اسمهم يتكون من اسمهم الاول واسم صاحبهم كما كان الاسم يكتب غالباً على ظهر يد العبد او على قطعة من الطين تعلق في رقبة العبد او الامة . وكان العبيد يميزون عن غيرهم من افراد المجتمع بطريقة قص شعورهم ووضع بعض العلامات المميزة الاخرى. ومع هذا المركز الضعيف الذي تمتع به الرقيق في العراق القديم ، فقد كان يحق لافراد هذه الطبقة تكوين اسر شرعية غير ان الاولاد الناتجين عن زواج العبد بالامة كانوا يرثون العبودية عن ابويهم . اما اذا تزوج العبد من امرأة حرة عند ذلك يكون الاولاد احرارا . وقد تحصل الامة على حريتها اذا اعترف مالكها باولادها كابناء شرعيين له او اذا مات مالكها بعد ان انجبت منه اطفالا. وفي العهود المتاخرة كان يحق للعبد ان يعمل لحسابه الخاص ويمتهن مهنة معينة كما كان يحق له ان يتفق مع مالكه على مبلغ معين يدفع للمالك باقساط ثابتة بعدها يكتسب العبد حريته . وتشير بعض الوثائق من العهد الاشوري والبابلي الحديث ان بعض العبيد تقلدوا مراكز حكومية مرموقة في حين تمكن بعضهم من اقامة دار سكنية خاصة بهم وامتلكوا عبيدا لخدمتهم .

يتضح من هذا ان العبيد في المجتمع العراقي القديم تمتعوا بحقوق وامتيازات جيدة مقارنة مع نظرائهم في المجتمعات القديمة الاخرى كالمجتمع اليوناني والروماني وكان بامكانهم التخلص من العبودية في حالات وظروف معينة.

**الاسرة**

تضم الاسرة عادة الاب والام والاولاد . وقد تضم بعض الاقرباء المعتمدين على رب الاسرة كالاخوة والاخوات والعمات والخالات

وفي العهود العراقية القديمة، يمكن أن نضع ضمن نطاق الاسرة كل من كان يعيش في البيت ومعتمداً على رب الاسرة ومنهم الاماء والعبيد وغيرهم .

ويمثل نظام الاسرة العراقية القديمة نموذجاً مصغراً لنظام الحكم الذي كان سائداً انذاك . فكما كان الملك صاحب السلطة العليا والمطلقة في البلاد، كذلك كان الاب في اسرته ، ولذلك سمي الاب برب الاسرة أي كبيرها. وكانت سلطة الاب على زوجته واولاده وتابعيه غير محدودة وقد تصل إلى درجة التصرف بهم كبيعهم أو رهنهم سداداً لديون مستحقة عليه . وطبيعي أن مركز رب الاسرة هذا ناتج عن حقيقة اعتماد جميع افراد الاسرة عليه في توفير متطلبات الحياة المادية وادامتها .

وقد نظمت القوانين ، وكذلك الاعراف والتقاليد ، علاقات أفراد الاسرة بعضهم بالبعض الآخر وحددت حقوق كل منهم تجاه الآخر وثبتت التزامات وواجبات كل فرد منهم . غير أن مايذكر في نص القوانين يمثل عادة النظرة المثالية التي اراد المشرع أن تسود المجتمع وعلاقات افراده، أما واقع تنظيم الاسرة وعلاقة الافراد مع بعضهم البعض فلا سبيل لمعرفته إلا من خلال دراسة الوثائق اليومية التي تدون حياة الافراد الخاصة والعامة ولا سيما ماله علاقة بالاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث والتبني والرضاعة وغيرها. وقد خلف لنا العراقيون القدماء عدداً وفيراً من هذا النوع من النصوص. ويبدو من دراسة هذه النصوص ومقارنتها مع ماورد في القوانين المدونة التي تعود إلى الفترة التاريخية نفسها ان المشرع لم يغالي في وضع صورة مثالية لتنظيم المجتمع بعيدة عن واقع الحياة بل أن ماورد في هذه النصوص جاء مطابقاً تقريباً للصورة التي رسمتها القوانين المدونة للاسرة العراقية القديمة . وفي حديثنا عن الاسرة العراقية القديمة سنعتمد على كلا المصدرين ، القوانين المدونة والوثائق اليومية لتعطي صورة اقرب ماتكون للواقع عن حياة الاسرة العراقية القديمة وعلاقاتها الفردية .

كان يضم الاسرة العراقية القديمة دار سكنى واحدة تجمع الوالدين والاولاد والاماء والعبيد . وقد يظل الاولاد يعيشون في كنف ابويهم حتى

بعد زواجهم ولحين تمكنهم من الاستقلال المطلق عنهما . أما معدل أفراد لاسرة الواحدة فلا سبيل لمعرفته على وجه الدقة لعدم وجود احصائيات من هذا النوع ويمكن القول أن عدد أفراد الاسرة كان يعتمد أساساً على عدد الزوجات وعدد الاماء المحظيات . ومما لاشك فيه ان الاسرة العراقية القديمة كانت ، كما هي في معظم المجتمعات المشابهة ، تتميز بكثرة عدد افرادها وان الرغبة كانت في اكثار الذكور من الاولاد . ولم تكن هناك طرق معينة لتحديد النسل متبعة من قبل المرأة أو الرجل على الرغم من أن القوم قد عرفوا بعض وسائل تحديد النسل كما يستدل على ذلك من بعض المواد القانونية التي حرمت الانجاب على صنف معين من الكاهنات .

يضاف إلى ذلك ، ان عدد الاماء والعبيد في الاسرة كان يزداد تبعاً لوضع الاسرة الاقتصادي . وقد قام أحد الباحثين بمحاولة طريفة لمعرفة معدل ما كانت تملكه الاسرة البابلية والاسرة الآشورية في الالف الاول قبل الميلاد من رقيق وقال بان المعدل كان ثلاثة ارقاء بالنسبة للاولى واربعة بالنسبة للثانية .

وفي حديثنا عن الاسرة العراقية القديمة ، تكوينها وعاداتها وتقاليدها سنتطرق إلى التقاليد والقوانين الخاصة بالخطوبة والزواج ثم الطلاق والارث والتبني والرضاعة وغيرها من الامور ذات العلاقة بالاحوال الشخصية بشكل موجز جداً محيلين الطالب إلى بعض البحوث العلمية المهمة التي تناولت الموضوع بشئ من التفصيل (١) .

---

(١) انظر حول تكوين الأسرة واحكام ذلك :
رضا جواد الهاشمي، نظام العائلة في العهد البابلي القديم، بغداد، ١٩٧١ .
د. هاشم الحافظ، تاريخ القانون العراقي، بغداد. ١٩٦٣ .
طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٥٥، الجزء الأول
د. محمود الأمين، قانون حمورابي، مجلة كلية الاداب، مجلد٣ (١٩٦٢)، صفحة ١-٨٠
د. عامر سليمان، القانون في العراق القديم، موصل: ١٩٧٧ .

**الخطوبــــة**

المقصود بالخطوبة في الشرق القديم بصورة عامة ، طلب شاب الزواج من فتاة معينة من خلال ذويه . ويتم الطلب وفق العادات والتقاليد السائدة، وقلما يحدث العكس ، أي قلما نجد فتاة تطلب الزواج من فتى حتى وان كان ذلك من خلال ذويها كما يندر ان نجد شاباً وشابة اتفقا على الزواج الا عن طريق ذويهمـــا .

وتؤكد النصوص المسمارية المختلفة ، ولا سيما القوانين ، ان الخطوبة والزواج كانت لاتتم الا بعد موافقة ذوي الفتى والفتاة . فكان دور الوالدين وكما هي الحال في الوقت الحاضر ، كبيراً في اختيار الزوجة المناسبة أو الموافقة على الزواج بصورة عامة سيما وان العرف الذي كان شائعاً انذاك هو الزواج المبكر ، أي أن الفتى عند زواجه كان معتمداً في الغالب على أبويه في حياتـــه المعاشيـــة .

ولم تكن هناك قواعد وأحكام قانونية ثابتة خاصة بكيفية اكمال اجراءات ومراسيم الخطبة كما ان المراسيم التي كانت تتبع لاتمامها لم تكن تدون في عقود خاصة ، كما كانت تدون مراسيم الزواج مثلا ، وهذا مانلاحظه في مراسيم الخطوبة حتى في ايامنا هذه حيث تحكم العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة اسلوب الخطوبة والمراسيم الخاصة بها .

وفي القوانين العراقية القديمة ورد ذكر للهدايا التي كان يقدمها الفتى إلى بيت حميه المقبل اثناء وبعد الخطوبة . وقد تضم تلك الهدايا مواداً عينية من مأكولات ومشروبات وملابس اضافة إلى الحلي الثمينة . ولنا ان نتصور مراسيم الخطوبة في تلك الازمنة القديمة قياساً مع مايحدث في الوقت الحاضر من مراسيم حيث يحضر ذوو الفتى واقرباؤه واصدقاؤه بيت ذوي الفتاة بعد أن يكون هناك موافقة مبدئية على الخطبة . وتحمل هدايا الخطوبة إلى بيت الفتاة وتقدم في احتفالات وطقوس خاصة تقدم فيها الاطعمة وكان الفتى يقوم بصب الزيت أو العطر على رأس خطيبته وزوجته المقبلة كجزء من الطقوس التقليدية.

ويظل الفتى مخطوباً للفتاة لحين كتابة عقد الزواج وقد تطول فترة الخطو… أو تقصر تبعاً للظروف الخاصة بالفتى والفتاة منها سن الفتى أو … وضيق اليد وغيرها . وما ان يكتب عقد الزواج حتى تصبح الفتاة … «زوجة رجل» لها مالزوجة رجل من حقوق وامتيازات وعليها ما على الزو… من التزامات وواجبات غير انها كانت تعيش منفصلة عن زوجها .

وقد تفسخ الخطوبة لسبب او اخر ، فان كان المتسبب في فسخ الخط… والد الفتاة ، كان عليه اعادة هدايا الخطوبة مضاعفة ، اما اذا كان المتسب… والد الفتى عندها يخسر الفتى ماقدمه من هدايا (انظر المواد ١٥٩-١٦١، من قانون حمورابي والمادة ٤٢ من القوانين الآشورية الوسيطة لوح ١) .

واشارت القوانين الآشورية الوسيطة إلى حالات خاصة بوفاة المخطوب أو المخطوبة قبل اتمام الزواج وبينت احكام ذلك . فان توفي المخطوب … لوالده ان يزوج خطيبة ابنه المتوفي لاحد ابنائه الاخرين وان لم يكن لابيه … في سن الزواج جاز له ان يتزوجها هو نفسه أو ان يسترد هدايا الخطوبة . أما … توفيت المخطوبة ، فكان يحق للخطيب أن يتزوج من احدى اخواتها أو يستـ… الهدايا التي قدمها لخطيبته المتوفاة ، وهذه عادات لازلنا نأخذ بها حتى الوقت الحاضر في مجتمعاتنا الريفية(١) .

## الزواج

الزواج هو اتحاد قانوني واجتماعي وجسدي بين رجل وامرأة متفق عليه ، غايته تكوين اسرة جديدة تنجب الاطفال . ويتم هذا الاتحاد وفق عادات وتقاليد خاصة بعد اكمال مراسيم الخطوبة .

ويتبين من دراسة المواد القانونية الكثيرة التي تطرقت إلى أحكام الزواج في العراق القديم ومن تحليل الوثائق اليومية الخاصة بالزواج بان احكام الزواج كانت في العراق القديم متطورة ومعقدة جداً في الوقت نفسه وانها لم تكن تختلف كثيراً عن احكام الزواج في المجتمعات الشرقية المعاصرة :

(١) حول الخطوبة في القوانين العراقية القديمة انظر : د. عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، صفحة ٢٥٧، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣٠٠ .

ويظل الفتى مخطوباً الفتاة لحين كتابة عقد الزواج وقد تطول فترة الخطوبة أو تقصر تبعاً للظروف الخاصة بالفتى والفتاة منها سن الفتى أو الفتاة وضيق اليد وغيرها . وما ان يكتب عقد الزواج حتى تصبح الفتاة بحكم «زوجة رجل» لها مالزوجة رجل من حقوق وامتيازات وعليها ما على الزوجة من التزامات وواجبات غير انها كانت تعيش منفصلة عن زوجها .

وقد تفسخ الخطوبة لسبب او اخر ، فان كان المتسبب في فسخ الخطوبة والد الفتاة ، كان عليه اعادة هدايا الخطوبة مضاعفة ، اما اذا كان المتسبب والد الفتى عندها يخسر الفتى ماقدمه من هدايا (انظر المواد ١٥٩ – ١٦١، من قانون حمورابي والمادة ٤٢ من القوانين الآشورية الوسيطة لوح ١) .

واشارت القوانين الآشورية الوسيطة إلى حالات خاصة بوفاة المخطوب أو المخطوبة قبل اتمام الزواج وبينت احكام ذلك . فان توفي المخطوب حق لوالده ان يزوج خطيبة ابنه المتوفي لاحد ابنائه الاخرين وان لم يكن لديه ابناء في سن الزواج جاز له ان يتزوجها هو نفسه أو ان يسترد هدايا الخطوبة . أما اذا توفيت المخطوبة ، فكان يحق للخطيب أن يتزوج من احدى اخواتها أو يسترد الهدايا التي قدمها لخطيبته المتوفاة ، وهذه عادات لازلنا نأخذ بها حتى الوقت الحاضر في مجتمعاتنا الريفية(١) .

### الزواج

الزواج هو اتحاد قانوني واجتماعي وجسدي بين رجل وامرأة متفق عليه ، غايته تكوين اسرة جديدة تنجب الاطفال . ويتم هذا الاتحاد وفق عادات وتقاليد خاصة بعد اكمال مراسيم الخطوبة .

ويتبين من دراسة المواد القانونية الكثيرة التي تطرقت إلى أحكام الزواج في العراق القديم ومن تحليل الوثائق اليومية الخاصة بالزواج بان احكام الزواج كانت في العراق القديم متطورة ومعقدة جداً في الوقت نفسه وانها لم تكن تختلف كثيراً عن احكام الزواج في المجتمعات الشرقية المعاصرة :

---

(١) حول الخطوبة في القوانين العراقية القديمة انظر : د. عامر سليمان ، القانون في العراق القديم، صفحة ٢٥٧، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣٠٠ .

## قانونيـــة الزواج

لم يعترف العراقيون القدماء بأي عقد أو اتفاق مهما كانت طبيعته مالم يكن محرر ومشهدا عليه . وعقد الزواج كغيره من العقود ، كان يحرر على رقيم طيني ، ربما بنسختين ،ويودع لدى الاطراف المتعاقدة ، أو ذويهم . وكان العقد عادة يتضمن اسماء الطرفين المتعاقدين وبنود اتفاقهما على الزواج ومبالغ هدايا الزواج المتفق عليها والتزامات كل من الطرفين تجاه الآخر وبعض الشروط الجزائية احياناً . ويختم العقد بأسماء الشهود والتاريخ وطبعات ختم أو اختام الاطراف المعنية. وقد تم العثور على اعداد كبيرة من عقود الزواج من فترات تاريخية مختلفة وتبين بأنها تتفق من حيث الاسس والمبادئ العامة مع بعضها البعض وان اختلفت في التفاصيل والجزئيات . وكان ينوب عن الفتى والفتاة في عقد الزواج ابويهما أو اخوانهما وان كان هناك بعض العقود التي ابرمت بين الفتى والفتاة مباشرة .

واستناداً إلى ذلك ، لم تكن الفتاة تعتبر «زوجة رجل » تتمتع بحقوق وامتيازات الزوجة وتقوم بواجباتها الا اذا تم تدوين عقد زواجها،وقد نصت المادة ١٢٨ من قانون حمورابي والمادة ٢٧ من قانون اشنونا على عدم عتبار الفتاة « زوجة رجل » دون عقد محرر حتى وان عاشت سنة كاملة في بيت الرجل زوجة له . ومع ذلك ، هناك بعض الحالات القانونية الخاصة التي اعترف بها القانون بزواج المرأة حتى وان لم تكتب عقداً محرراً بذلك منها زواج المرأة الحرة من عبد مملوك أو دخول زوجة غاب زوجها غيبة منقطعة ولم يترك لها ماتعيش عليه إلى بيت رجل ثان وانجاب الاطفال منه .

## اشكال الزواج

قد يكون الزواج كاملا وقد يكون ناقصاً . فالزواج الكامل هو ذلك الزواج الذي يتم الاتفاق عليه أولا وتتم مراسيم الخطوبة ويحرر العقد وتقدم الهدايا والمبالغ المتفق عليها وتجري المراسيم الخاصة بالزواج ودخول الرجل بالمرأة

وتنتقل العروس إلى بيت عريسها لتعيش مع ذويه عندها تسمى العروس «زوجة رجل» لها حقوقها وعليها التزاماتها .

أما الزواج الناقص ، فهو الزواج الذي تتم فيه مراسيم الخطوبة وتقدم الهدايا ويحرر العقد الخاص بالزواج وتسمى الفتاة «زوجة رجل» غير انها تظل في بيت ابيها ريثما يتم اكمال الزواج والدخول بها أما بسبب صغر سنها أو سن عريسها أو بسبب عدم اكتمال الترتيبات اللازمة لانتقالها إلى بيت الزوجية. ويكون لمثل هذه الزوجة جميع الحقوق وعليها جميع الالتزامات المفروضة على الزوجة المنتقلة إلى بيت زوجها .

ويمكن مقارنة هذين النوعين من الزواج بما يجري حالياً في الاسر العراقية حيث قد يعقد قران شاب على شابة ويكتمل الزواج بعد فترة قصيرة وتنتقل الزوجة إلى بيت الزوجية أو ان يؤجل انتقال الزوجة إلى بيت الزوجية بعد عقد القران لحين اكمال الترتيبات اللازمة للزواج من اعداد البيت وتأثيثه أو لصغر سن الفتاة أو الفتى وتبقى الفتاة في بيت ابيها متمتعة بجميع حقوق الزوجية باستثناء الدخــول فيهــا .

وكان أساس الزواج في العهود العراقية المختلفة يقوم على مبدأ الزوجة الواحدة ، أي عدم تعدد الزوجات ، الا في الحالات التي حددها القانون . غير أن العادات والتقاليد والقوانين اجازت للرجل أن يتخذ له سراري ومنهن الاماء اللائي كن ملكاً للرجل وقد تنجب بعض السراري اطفالا من اسيادهن غير أن الاولاد لايعدوا اولاداً شرعيين لهم حقوق الاولاد الحقيقيين الا اذا اعترف الأب ببنوتهم .

ومن الحالات التي حددتها القوانين وأجازت فيها زواج الرجل بامرأة ثانية ، عقر الزوجة أو اصابتها بمرض يتعذر معه قيامها بواجبات الزوجية أو سوء اخلاق الزوجة وتكرر خروجها من البيت دون اذن من الرجل .

كما سمحت القوانين البابلية والآشورية للزوجة بالزواج ثانية في حالات معينة منها غياب زوجها غيبة منقطعة لفترة جاوزت المدة المقررة قانوناً

ستين في القوانين البابلية وخمس سنوات في القوانين الآشورية ) دون أن يترك لها ماتعيش عليه من موارد اقتصادية ولم يكن لها اولاد بالغين يتمكنون من اعالتها ، او ان كانت غيبته الطويلة بمحض ارادته وكرها لمدينته . كما اجازت القوانين زواج الارملة وفق شروط خاصة .

**انواع الزوجات**

لم تكن الزوجات متساويات من حيث المركز الاجتماعي والقانوني في العهود العراقية القديمة . فالزوجة الاولى ، او المختارة ، كانت تسمى « زوجة رجل » بعد أن تتم مراسيم الزواج وتنتقل إلى بيت الزوجية . وكان لهذه الزوجة السيادة المطلقة في بيت زوجها على الاولاد والاماء والعبيد وحتى على الزوجات الأخريات ان وجدن . وقد عاقبت القوانين [illegible] من يحاول الاساءة إلى سمعة «الزوجة الاولى» بعقوبات صارمة قد تصل إلى الاعدام ان لم تثبت التهمة الموجهة اليها كما عاقبت الزوجات الاخريات ان حاولن الانتقاص من مركز الزوجة الاولى أو مساواة انفسهن بها .

وقد يتزوج الرجل من كاهنة . و الكاهنات على اصناف فمنهن من تسمى « ناديتم » ومنهن تسمى « شوكيتم » ، وكان مركز الاولى الكهنوتي اكبر من الثانية كما كانت حالتها الاقتصادية أحسن من الثانية غالباً سيما وانهن كن ينتمين إلى الطبقة الارستقراطية والحاكمة .

فاذا تزوج الرجل من « ناديتم » ، نقلت الزوجة معها مركزها الكهنوتي الرفيع إلى بيت زوجها واكتسبت مركزاً اجتماعياً كبيراً . ونظراً لان القوانين والتقاليد الدينية السائدة لم تكن تسمح لها بانجاب الاطفال ، لذلك كان للزوج ان يتخذ احدى امائه سرية له لانجاب الاطفال او ان يتزوج من امرأة ثانية وقد تقدم الكاهنة نفسها احدى امائها او اخواتها لزوجها كي تنجب له الاطفال . وكان الاطفال يعتبرون ، قانوناً ، أولاد الكاهنة على الرغم من وجود امهم الحقيقية . وهذا المركز الذي تمتعت به الكاهنة يفسر لنا ارتفاع قيمة المهر والهدايا التي كانت تقدم لها اثناء زواجها كما ان عدم السماح لها بالانجاب

يفسر إحتواء الهدايا التي كانت تجلبها معها عند الزواج عدداً من الاماء او الاخوات .

اما الصنف الثاني من الكاهنات اللائي كان يمكن للرجل ان يتزوج منهن فهو صنف يسمى «شوكيتم». وكان يحق لهذا الصنف انجاب الاطفال وتربيتهم غير ان «الشوكيتم» لم تكن تتمتع بالمركز الرفيع الذي تمتعت به الكاهنة بل انها كانت احيانا بمركز الامة التي تنجب الاطفال لسيدها . وقد تكون الا شوكيتم الزوجة الاولى التي يتزوجها الرجل فتتمتع حينئذ بمركز الزوجة الا من حيث الطلاق .

واخيراً هناك الاماء اللائي يملكهن الرجل فقد كن قانونا ملك يمينه وله ان يفعل بهن مايشاء،وقد تنجب الامة اطفالا من سيدها ، فان اعترف الاب ببنوتهم اثناء حياته ، اصبح الاولاد من جملة اولاده الاخرين وكان لهم الحق باقتسام التركة بعد وفاته . اما اذا لم يعترف الاب ببنوتهم اثناء حياته فلا حق لهم في التركة لكنهم كانوا يكتسبون هم وامهم حريتهم من بعد وفاة الاب سواء اعترف ببنوتهم ام لم يعترف .

ولم تكن علاقة المالك بامته قائمة على اساس عقد مكتوب شبيه بعقد الزواج بل كان عقد تملك الامة كافيا لاعطاء المالك الحق باتخاذ الامة كزوجة .

هدايا الخطوبة والزواج :

كان لكل من الزوج والزوجة حقوق مالية معينة ناتجة عن الزواج . فاما الزوجة ، فكان يحق لها ان تأخذ نصيبها من املاك ابيها ، على شكل هدية تقدم لها عند الزواج . وكانت هذه الهدية التي يطلق عليها في الاكدية مصطلح «شيرقتم»،تقدم لها على هيئة اموال منقولة او غير منقولة ويمثل نصيب الفتاة هذا حصتها المقبلة في الارث ويكون ضماناً لها في مستقبل حياتها مع زوجها وقد نصت القوانين على احتفاظ الزوجة ببائنتها ( شيرقتم ) في جميع الحالات على الرغم من حق زوجها في استغلال البائنة اثناء وجود زوجته معه فإن توفيت

او طلقت الزوجة او توفي الزوج عادت اليها او إلى اولادها او إلى بيت ابيها
الهدية التي كانت قد جلبتها من بيت ابيها .

كما كان للمرأة المطلقة، ماعدا المرأة المطلقة لاسباب تتعلق بسوء اخلاقها ، حق في ان تاخذ مبلغاً معينا من المال يتناسب وامكانات زوجها المادية مقابل الطلاق بعينها في حياتها بعد فسخ العلاقة الزوجية .

اما المهر ( بالاكدية ترخاتم ) فهو ما يقدمه الرجل إلى زوجته بعد اكمال مراسيم الخطوبة وقد يتضمن اموالا منقولة او غير منقولة نقدية او عينية. وتنص جميع عقود الزواج على كمية المهر واسلوب تسلمه ويكون المهر من حق الزوجة ، او ذويها ، الا اذا لم ينتج الزواج اطفالا ثم توفيت الزوجة ، حينئذ يحق للزوج استرجاع ماقدمه من مهر نظرا لعدم تحقيق الزواج الهدف من قيامه في انجاب الاطفال .

وقد اشرنا سابقاً عند الحديث عن الخطوبة ان الرجل يخسر الهدايا التي يقدمها إلى مخطوبته ان هو عدل عن الزواج قبل اتمامه، كذلك بالنسبة للمخطوبة فانها تخسر مايقابل تلك الهدايا ان هي ، او والدها ، عدلت عن اتمام الزواج .

واخيرا هناك هدية اخرى كان يقدمها الزوج إلى زوجته بعد انتقالها إلى بيت الزوجية تسمى «نودونم» ، وقد تضم اموالا منقولة وتبقى الهدية ملكا للزوجة اثناء حياة زوجها وبعد وفاته ، فان توفيت عادت الهدية إلى اولادها من بعدها . وفي حالة تطليقها، او زواجها ثانية من بعد وفاة زوجها الاول، تعود الهدية إلى اولادها ايضا. وتقابل هذه الهدية ماهو متعارف عليه في الوقت الحاضر من تقديم هدايا إلى الزوجة بعد زواجها مباشرة ويطلق عليها عادة «الصباحية» او «الصبحية» .

اضافة إلى هذه الحقوق قد تحصل الزوجة على بعض الاموال التي يسجلها لها زوجها ويكتب بذلك رقيماً مختوماً كما كانت الزوجة مسؤولة كزوجها عن جميع الديون والتبعات المالية التي تقع على الزوج ان كانت تلك الديون والتبعات قد تحققت من بعد زواجهما .

اما الزوج ، فكانت حقوقه المالية لدى الزوجة مقصورة على مبلغ المهر الذي يقدمه وهدايا الخطوبة وهدايا الزواج . فان تحقق الزواج وتوفيت الزوجة قبل ان تلد له اولادا،او انالزواجلم يكتمل بسببالفتاة او بسببوالديها او ان الرجل طلق زوجته لسوء سلوكها ، فللرجل ان يسترجع المبالغ والهدايا التي قدمها لزوجته كاملة ويعيد اليها بائنتها ويأخذ اضافة إلى ذلك ضعف هدايا الخطوبة ان كان ذوى الفتاة هم السبب في فسخ الخطوبة .

**الطلاق**

كان الطلاق معروفاً في المجتمع العراقي القديم منذ اقدم العصور التاريخية وكان الطلاق بصورة عامة بيد الرجل غير انه كان يحق للزوجة انتطالب بالطلاق وتقاضي الزوج ان هو اخل بالتزاماته الزوجية . وقد اشارت القوانين العراقية القديمة إلى بعض حالات الطلاق في عدد من موادها كما تم العثور على عدد من الوثائق والعقود الخاصة بالطلاق .

ولم يكن فسخ الرابطة الزوجية ، اي الطلاق ، يتم كيفيا وحسب اهواء الرجل او المرأة بل كانت هناك قواعد واحكام قانونية تحدده بل يمكن القول ان الطلاق كان ممنوعاً الا في بعض الحالات الاستثنائية لاسيما في قانون حمورابي.

ففي قانون اور — نمو ، وهو اقدم القوانين المكتشفة حتى الان ، كان على الرجل ان يدفع إلى زوجته الاولى التي يروم تطليقها مبلغاً من المال ، فان كانت ارملة سابقة،دفع لها نصف المبلغ المحدد . اما قانون لبت — عشتار ( من عهد سلالة ايسن حدود ٢٠٠٠ ق. م.) فقد اشار إلى حالة رغبة الزوج بتطليق زوجته بسبب عشيقته وسمح له بالطلاق على ان يدفع لها ماتستحقه من اموال وفي نفسالوقت منع الزوج من بعد ذلك الزواج منعشيقته.وكان قانون أشنونا، الذي يعود إلى فترة تالية ، اكثر قسوة تجاه الرجل في حالة طلاقه لزوجه التي انجبت له اولادا حيث نص على طرد الزوج من البيت وخسرانه جميع مايملكه إلى الزوجه والاولاد .

وسمح قانون حمورابي للرجل ان يطلق زوجته ان كانت من صنف الكاهنات على ان يعطيها بائنتها التي جلبتها من بيت ابيها وهدية زواجها او مبلغ من المال يقابل ذلك اضافة إلى حصة معينة في املاكه غير المنقولة وسمحت للزوجة ان تتزوج ثانية به ان يكبر اولادها . كما سمح حمورابي للزوج ان يطلق زوجته العاقر على لها بائنتها اضافة إلى مبلغ الطلاق . كما اعطى القانون الحق للزوج ن زوجته او يعتبرها امة في بيته ويتزوج ثانية ان هي اساءت السلوك وخرجت من بيتها وحطت من سمعتها وسمعته .

ومن الحالات التي كان يسمح بها للزوجة ان تطلب الطلاق حالة تكرار خروج الزوج من البيت وقيامه باعمال وتصرفات اخلاقية مشينة عندها يقاضى الزوج فان ثبتت ادانته طلقت زوجته .

وهكذا نلاحظ ان جميع القوانين باستثناء قانون اور – نمّو لم تسمح للرجل بان يطلق زوجته دون عذر مشروع ،كعدم الانجاب او سوء الاخلاق، وفرضت عليه تبعات مالية قاسية ان هو طلق زوجته الاولى دون سبب . بل ان قانون لبت – عشتار وقانون حمورابي قد نصّا في احدى المواد على عدم جواز تطليق الزوجة المريضة مرضا لايرجى شفاءه الا اذا اردات الزوجة ذلك في حين سمح للزوج بان يتزوج ثانية (١).

**العلاقات الزوجية**

حددت الاعراف والتقاليد ونصت القوانين العراقية القديمة على ضرورة المحافظة على العلاقات الزوجية وعدم اتيان أي من الزوجين أي عمل قد يهدد كيان العائلة وينذر بتفككها . وقد لاحظنا عند الحديث عن حالات الطلاق كيف نصت

---

(١) حول المواد الخاصة بالطلاق انظر :
قانون اور – نمو: م: ٦ – ٨
قانون لبت – عشتار م: ٢٨، ٣٠
قانون اشنونا م: ٥٩
قانون حمورابي م : ١٣٧ – ١٤٢

احدى مواد قانون اشنونا على طرد الزوج من بيته وخسرانه أملاكه
ان هو أراد تطليق زوجته وأم أولاده بسبب عشيقته كما منعته من الزواج
في حين نص قانون حمورابي على حق الزوجة بالطلاق ان ثبت تكرر
الزوج من بيته والقيام باعمال غير محتشمة تحط من سمعته وسمعة زوجته

ومن ناحية أخرى ، كان على الزوجة أن تحافظ على سمعتها وعفتها وكرامتها
وحسن سلوكها وتصرفاتها ولا تأتي بما يغضب الزوج أو يحط من كرامته في
المجتمع والا وقعت تحت طائلة القانون فاما أن تطلق أو أن تعاقب بعقوبة
قد تصل إلى الرمي بالنهر في حالة القبض عليها متلبسة بجريمة الخيانة الزوجية
أن تتحول إلى أمة مملوكةفي بيت زوجها. وقد أشارت القوانين الآشورية الى حق
الزوج ضرب زوجته وسحب شعرها في حالات معينة .اما إذا تسببت الزوجة
في قتل زوجها بسبب رجل آخر ،فعندها يحق عليها الموت بابشع صوره كما
ذلك في المادة ١٥٣ من قانون حمورابي حيث نص على توتيد المرأة المتزوجة إن
قتلت زوجها بسبب عشيقها .وكانت عقوبة الزوجة السارقة من بيت زوجها
قاسية أيضاً كما كانت الزوجة تحاسب على كل علاقة تربطها بأي رجل خارج بيتها

ولم تكن التقاليد والاعراف السائدة تحدد من تصرفات الزوج كثيراً بل كان
الزوج حراً في كثير من تصرفاته شأنه بذلك شأن الزوج في الأسر العراقية الحديثة
أما الزوجة فكانت مقيدة بتصرفاتها وعليها أن تلتزم بواجباتها الكثيرة بحيث
توفر لزوجها بيتاً هادئاً مطمئناً وتسهر على تربية أولادها وتوفر لهم ولزوجها المأكل
والملبس وقد تعمل أثناء النهار وفي الحقل والبستان وتساعد زوجها في حراثة وزراعة
حقله أو تقوم ببعض الحرف اليدوية كالحياكة والنسيج أو صناعة الاواني الفخارية
وغيرها من الصناعات اليدوية .

**التبني**

كان التبني من التقاليد القانونية المقبولة والشائعة في العراق القديم فكان يجوز
لأي شخص أن يتبنى واحداً أو أكثر من الأطفال من الذكور أو الاناث وقد
يتبنى ولداً أو بنتاً بالغة ،ويكتسب المتبني بعدها جميع الحقوق والامتيازات التي

احدى مواد قانون اشنونا على طرد الزوج من بيته وخسرانه أملاكه المنقولة ان هو أراد تطليق زوجته وأم أولاده بسبب عشيقته كما منعته من الزواج من العشيقة في حين نص قانون حمورابي على حق الزوجة بالطلاق ان ثبت تكرر خروج الزوج من بيته والقيام باعمال غير محتشمة تحط من سمعته وسمعة زوجته .

ومن ناحية أخرى ، كان على الزوجة أن تحافظ على سمعتها وعفتها وكرامتها وحسن سلوكها وتصرفاتها ولا تأتي بما يغضب الزوج أو يحط من كرامته في المجتمع والا وقعت تحت طائلة القانون فاما أن تطلق أو أن تعاقب بعقوبة قاسية قد تصل إلى الرمي بالنهر في حالة القبض عليها متلبسة بجريمة الخيانة الزوجية أو أن تتحول إلى أمة مملوكة في بيت زوجها. وقد أشارت القوانين الآشورية الى حق الزوج ضرب زوجته وسحب شعرها في حالات معينة .اما إذا تسببت الزوجة في قتل زوجها بسبب رجل آخر ،فعندها يحق عليها الموت بابشع صوره كما جاء ذلك في المادة ١٥٣ من قانون حمورابي حيث نص على توتيد المرأة المتزوجة إذا قتلت زوجها بسبب عشيقها .وكانت عقوبة الزوجة السارقة من بيت زوجها قاسية أيضاً كما كانت الزوجة تحاسب على كل علاقة تربطها بأي رجل خارج بيتها

ولم تكن التقاليد والاعراف السائدة تحدد من تصرفات الزوج كثيراً بل كان الزوج حراً في كثير من تصرفاته شأنه بذلك شأن الزوج في الأسر العراقية الحديثة أما الزوجة فكانت مقيدة بتصرفاتها وعليها أن تلتزم بواجباتها الكثيرة بحيث توفر لزوجها بيتاً هادئاً مطمئناً وتسهر على تربية أولادها وتوفر لهم ولزوجها المأكل والملبس وقد تعمل أثناء النهار وفي الحقل والبستان وتساعد زوجها في حراثة وزراعة حقله أو تقوم ببعض الحرف اليدوية كالحياكة والنسيج أو صناعة الاواني الفخارية وغيرها من الصناعات اليدوية .

**التبني**

كان التبني من التقاليد القانونية المقبولة والشائعة في العراق القديم فكان يحق لأي شخص أن يتبنى واحداً أو أكثر من الأطفال من الذكور أو الاناث وقد يتبنى ولداً أو بنتاً بالغة ،ويكتسب المتبني بعدها جميع الحقوق والامتيازات التي

جميع الالتزامات والواجبات الواقعة [illegible] كما كانت تقع [illegible] يتمتع بها الولد الحقيقي على الولد الحقيقي .

وكان السبب الرئيس للتبني هو [illegible] على الأطفال بالنسبة لبعض الأسر التي حرمت من الاطفال لاسباب [illegible] كالعقم، أو قانونية ، كالزوجات الكاهنات ، كما كان البعض يتبنى ولدا [illegible] بالغة لكي يسهروا عليهم في حياة الشيخوخة ويقوموا برعايتهم ومن ثم يقدمو [illegible] القرابين ويؤدوا الطقوس الدينية من بعد مماتهم .

وقد أشارت القوانين العراقية القديمة ، ومنها قانون حمورابي ، إلى بعض حالات التبني وحددت واجبات والتزامات كل من الطرفين وشرطت على الأب المتبني أن يعلم الطفل المتبني بعد أن يكبر مهنته وحرفته وإلا عاد الطفل إلى أبويه الحقيقيين مما يدل على أن بعض حالات التبني كانت تهدف إلى تعليم الطفل حرفة أو مهنة معينة لايعلمها أصحابها إلا لأولادهم .

وكان التبني يتم بموجب عقد محرر ومشهد عليه حيث كان يتفق الابوين الحقيقيين مع الابوين اللذان يرومان التبني وتذكر مبالغ الهدايا التي دفعت إلى الابوين الحقيقيين مقابل التبني مما يدل على أن التبني كان نوعاً من انواع بيع الأطفال بسبب فقر الحال أو أي سبب آخر . وقد تم العثور على مئات من نصوص التبني وضمت هذه العقود اضافة إلى ذلك بعض الشروط الجزائية الخاصة في حالة انكار المتبني لابوية أو قيامه ببعض الأعمال [illegible] هم كما الزمت الابوين بالايفاء بالتزاماتهم تجاه الولد المتبني واعطائه نصيباً من [illegible] هما مواز لنصيب ولد حقيقي .

## الرضاعة

يبدو أن بعض الأسر العراقية القديمة كانت تدفع باطفالها إلى مرضعات امتهن الرضاعة بغية تربيتهم لفترة الرضاعة ، وهو أسلوب ظل يعمل به في شبه الجزيرة العربية إلى فترة متأخرة . ولانعرف هل كان الطفل يعيش في بيت المرضعة أم أن المرضعة كانت تتردد على بيت والدي الطفل لارضاعه .

يتمتع بها الولد الحقيقي كما كانت تقع عليه الالتزامات والواجبات الواقعة على الولد الحقيقي .

وكان السبب الرئيس للتبني هو الحصول على الأطفال بالنسبة لبعض الأسر التي حرمت من الاطفال لاسباب طبيعية ، كالعقم، أو قانونية ، كالزوجات الكاهنات ، كما كان البعض يتبنى ولداً أو بنتاً بالغة لكي يسهروا عليهم في حياة الشيخوخة ويقوموا برعايتهم ومن ثم يقدمون لهم القرابين ويؤدوا الطقوس الدينية من بعد مماتهم .

وقد أشارت القوانين العراقية القديمة ، ومنها قانون حمورابي ، إلى بعض حالات التبني وحددت واجبات والتزامات كل من الطرفين وشرطت على الأب المتبني أن يعلم الطفل المتبنى بعد أن يكبر مهنته وحرفته وإلا عاد الطفل إلى أبويه الحقيقيين مما يدل على أن بعض حالات التبني كانت تهدف إلى تعليم الطفل حرفة أو مهنة معينة لايعلمها أصحابها إلا لأولادهم .

وكان التبني يتم بموجب عقد محرر ومشهد عليه حيث كان يتفق الابوين الحقيقيين مع الابوين اللذان يرومان التبني وتقدّم مبالغ الهدايا التي دفعت إلى الابوين الحقيقيين مقابل التبني مما يدل على أن التبني كان نوعاً من انواع بيع الأطفال بسبب فقر الحال أو أي سبب آخر . وقد تم العثور على مئات من نصوص التبني وضمت هذه العقود اضافة إلى ذلك بعض الشروط الجزائية الخاصة في حالة انكار المتبني لابوية أو قيامه ببعض الأعمال ضدهم كما ألزمت الابوين بالايفاء بالتزاماتهم تجاه الولد المتبنى واعطائه نصيباً من تركتهما موازٍ لنصيب ولد حقيقي.

## الرضاعة

يبدو أن بعض الأسر العراقية القديمة كانت تدفع بأطفالها إلى مرضعات امتهنّ الرضاعة بغية تربيتهم لفترة الرضاعة ،وهو أسلوب ظلّ يعمل به في شبه الجزيرة العربية إلى فترة متأخرة .ولانعرف هل كان الطفل يعيش في بيت المرضعة أم أن المرضعة كانت تتردد على بيت والدي الطفل لارضاعه .

وقد أشارت احدى مواد قانون حمورابي على الزام المرضعة باخبار والدي الطفل الذي تروم أخذه للرضاعة بأي حالة وفاة قد حدثت للاطفال الذين تولت ارضاعهم من قبل .أما إذا لم تخبر والدي الطفل الجديد بذلك فتعاقب عقوبة صارمة وهي قطع الحلمتين أو الثديين .

وربما كان من أسباب اعطاء الطفل للمرضعة الممتهنة ان بعض الاسر كانت تتبنى أطفالا في سن الرضاعة أو أن أم الطفل الوليد تموت أثناء الولادة أو بعدها بقليل فيبقى الطفل دون من يرضعه .

**التحجب**

من العادات والتقاليد التي شاعت في العراق القديم ،في العصور الآشورية على أقل تقدير ، عادة تحجب الزوجات من الاحرار . وقد اشارت القوانين الآشورية الوسيطة على ضرورة تحجب المرأة المتزوجة وحرّمت التحجب على الاماء أو النساء المعروفات بسوء سلوكهن وفرضت القوانين على كل فرد آشوري يتعرف على أمة محجبة أن يقتادها إلى السلطة ويرفع عنها حجابها وإلا وقع تحت طائلة القانون . وإذا أراد شخص أن يتزوج من امة ويعدها زوجة له ، [illegible] عليه أن يشهد الناس على ذلك ويلبسها الحجاب .

ولا ندري ماذا يقصد بالحجاب هل كان يعني ارتداء عباءة تغطي الجسم والرأس والوجه ،كما هي الحال الآن ،ام أن المقصود به هو ارتداء الخمار على الرأس فحسب وان كان الاحتمال الثاني هو أقرب حيث لم نعثر حتى الآن على منحوتة تمثل النساء وهن متحجبات.

## المبحث الثاني

# الاحتفالات والاعياد

### ( مراسيمها ، الزواج المقدس . قصة تموز وعشتار )

**مقدمـــة :**

تتميز العقيدة الدينية عند السومريين والبابليين بصفات عديدة لعل من ابرزها وأهمها مبدأ الحيوية (Aminism) ومبدأ التشبيه (Anthropomorvism) واللذين يرجعان اصلا إلى معتقدات انسان عصور ماقبل التاريخ . اذ من المعروف في انسان تلك العصور انه كان شديد التأثر بحكم اسلوب حياته البدائي بالظروف الطبيعية . ولاشك في أنه احس من خلال تأملاته في ظواهر الطبيعة ومن خلال تفاعله معها ، وخاصة تلك التي كان لها مساس مباشر بحياته اليومية بان في تلك الظواهر قوى اوارواح مما تسبب مثلا في هبوب الرياح والعواصف حدوث البرق والرعد ، هطول الامطار وحدوث الفيضان .... وبالمثل فانه عزا جميع مظاهر التجدد والعطاء كظهور العشب وتفتح البراعم وتكاثر الحيوانات وكثرة الخيرات في موسم الربيع .

ونتيجة لعملية التحدي والتفاعل المتواصلة بين الانسان وقوى الطبيعة فقد كان منطقياً ان يتصور الانسان تلك القوى بهيئة البشر وان يسبغ عليها – عندما جسدها بالهة ، بجميع صفاته ، ولهذا نجد أن الالهة في وادي الرافدين كانت تتصف بكل مظاهر الحياة اليومية للانسان وانها تشبهه في احتياجاته وسلوكه ورغباته . فالالهة كانت ايضاً تأكل وتشرب وتتزوج وتتنازع وتذنب وتمارس الحكم ولها مجلس تبحث فيه مصير الكون والانسان ولعل الفرق الوحيد بينها وبين البشر، في نظر القدماء من سكان وادي الرافدين، ان الالهة لاتموت وان كان لم يسلم من الموت كلياً كما سنرى ذلك بالنسبة للاله دموزي (تموز).

واذا ماانتقلنا من ابرز خصائص الديانة السومرية – البابلية إلى صلب العقيدة الدينية نفسها فأننا نجد ان المعتقدات والطقوس الخاصة بالتكوين والخصب

كانت من اهم المبادىء التي يرتكز عليها الفكر الديني كما يتضح ذلك من الحيز الكبير الذي شغلته في المصادر المسمارية. ولابد لنا تمهيداً للانتقال إلى موضوعنا الرئيسي وهو اعياد رأس السنة والزواج المقدس ان نأتي اولا على ذكر اسطورة الخليقة البابلية بأعتبارها المنطلق الذي تتشعب منه بقية المفاهيم الدينية للسومريين والبابليين.

يمكننا ان نلخص تفاصيل اسطورة الخليقة البابلية بالقول ان المياه الأزلية ابسو (المياه العذبة، مذكر) وتيامة (المياه المالحة، مؤنث) كانت مصدر الوجود وانه نتيجة لامتزاجها ولدت اجيال عديدة من الالهة غير ان هذه الاجيال الجديدة لم تلبث ان اضطرت إلى خوض معركة مصيرية مع ابويها ابسو وتيامة عندما اكتشفت ان ابسو دبر مكيدة لا بادتها بسبب انزعاجه من سلوكها وضوضائها. وقد انتهت الجولة الاولى بأنتصار الالهة الجديدة على آبسو وبمقتله. ولما عزمت زوجته تيامة على الانتقام له فقد اصاب الذعر هذه الالهة امام قوتها السحرية الخارقة، وتذكر اسطورة التكوين انه بعد الاخذ والرد وقع اختيار الالهة على الاله مردوخ (الاله القوى للبابليين وبطل الاسطورة) لقيادة الحملة ضد هجوم تيامة. وبالفعل استطاع مردوخ من دحر جيوشها ومن قتلها. واخيراً فأنه شطر جسمها إلى شطرين خلق من احدهما السماء ومن الآخر الارض ثم تبع ذلك خلق الانسان والنبات والحيوانات والحرف والصناعات.

ويستطيع الباحث من خلال استقصائه لجذور ومدلولات اسطورة الخليقة البابلية ان الفيضانات السنوية في بلاد وادي الرافدين كانت من مفهوم الفرد عبارة عن تجسيد لطغيان المياه الأزلية الاولى (ابسو وتيامة) وما كلف ذلك الالهة الحديثة من صراع في سبيل كبح جماحها . ولذلك فقد كان من المحتم على الالهة او ممثليها في الارض (كالملوك والحكام والكهنة) خوض هذه المعركة وكسبها كل عام مثلما فعلت الالهة في الدهور الاولى والا تهدد الكون بالفناء. لقد كان هذا الايمان باسطورة الخليقة البابلية او لتكوين السبب في ظهور ما

يعرف باحتفال رأس السنة الذي بقي يقام سنوياً في وادي الرافدين الى قرون متأخرة جداً من تاريخ الحضارة البابلية ولعل من اهم وابرز الطقوس المتشعبة عن هذا الاحتفال قيام الملك بتقمص شخصية الاله مردوخ ، بطل اسطورة التكوين البابلية وبمحاربة كنكو (kingu) قائد قوات تيامة والقضاء عليها في مسرحية دينية وهي عبارة عن تمثيل لوقائع اسطورة التكوين .

وبالمثل ومن أجل ضمان مسببات الخصب والتكاثر في الطبيعة ، سواء ما يتعلق منها بالانسان ام الحيوان ام النبات ، فقد كان ضرورياً ايضاً اقامة احتفالات وطقوس سنوية يجري خلالها استحداث عملية التخصيب من خلال الطقوس لما احدثتها الالهة في البدء . ولما كانت اساطير الخصب في وادي الرافدين قد جسدت مسبباته في الهة الخصب والحب والتكاثر عرفت في السومرية باسم انانا وفي البابلية عشتار ( وفي اله الخصب هو زوجها دموزي (تموز) فقد كان منطقياً لذلك ايضاً ان تعاد وقائع ذلك الزواج الالهي كل عام فيقوم ممثلوا الالهة من البشر كالملك او الكاهن الاعظم بتقمص شخصية الزوج ــ الاله دموزي بينما تقوم الكاهنة العظمى بدور الزوجة ــ الالهة انانا (عشتار) في احتفال كبير يعرف بين المختصين بالزواج المقدس ( sacred marriage ) الذي كان يجري في بداية رأس السنة الجديدة (التي كانت تصادف آنذاك شهر نيسان)

**الزواج المقدس :ــ**

الزواج المقدس من الاحتفالات الدينية التي تدور حول التأكيد على اهمية ظواهر الخصب في الطبيعة وعلى محاكاة تلك الظواهر من اجل زيادة الانماء ووفرة المحصول والانتاج وتكاثر الماشية والاغنام وكثرة العشب وهطول الامطار والى غير ذلك من مسببات الخير والرفاه للمجتمع الانساني .

لايعرف على وجه التحديد متى بدأ سكان وادي الرافدين يقيمون الاحتفالات الخاصة بالزواج المقدس ، ولكن يبدو من بعض النصوص المسمارية انه ربما كان معروفاً في زمن انميركار ثاني سلالة الوركاء الاولى (في حدود ٢٧٥٠ ق.م) . ويرى بعض الاثاريين في الآثار المكتشفة في المقبرة الملكية في اور والتي

يعود تاريخها الى حدود ٢٦٠٠ ق.م . انها عبارة عن بقايا لتلك الاحتفالات الطقوسية الخاصة بهذا الزواج في العصور المبكرة في بلاد سومر اذ تم العثور في العشرينات من هذا القرن على مجموعة ثمينة من الأواني والاكواب والخناجر والخوذ والحلي والقيثارات وادوات اخرى متنوعة مصنوعة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة وكشفت التنقيبات في هذه المقبرة عن اعداد كبيرة من القبور كان من بينها ستة عشر قبراً يعتقد انها كانت مدافن ملكية تتميز عن قبور العامة بكونها ابنية تحت الارض لكل منها غرف عددها في المدفن الواحد بين غرفة واحدة واربعة غرف كما انها تتميز في احتوائها على عدد من جثث الموتى يتراوح عددها في المدفن الواحد بين ثلاثة اشخاص واربعة وسبعين شخصاً دفنوا بكامل ملابسهم وحليهم واسلحتهم مع العربات والثيران التي تجرها .

ويرى بعض الآثاريين ان هذه المدافن الجماعية تمثل طقوساً بدائية للخصب والتي كان من ابرزها الزواج المقدس . ولم يكن من الضروري ، عند اصحاب هذا الرأي ، ان يكون الملك او الملكة الشخصين الرئيسيين في هذا الاحتفال وانما كان دور الزوج ــ الاله (اي اله الخصب دموزي) يسند الى احد الكهنة بينما تقوم معه أحدى الكاهنات بدور الزوجة ــ الالهة (اي الهة الخصب انانا) واخيرا فأنه بعد ان يتم الكاهن والكاهنة دورهما في تمثيل او محاكاة الزواج المقدس ، اي زواج اله الخصب دموزي من الهة الخصب انانا، كان يجرى قتلهما ودفنهما مع بقية المشاركين في اداء طقوس الاحتفال من نساء ورجال . واذا صحت هذه الفرضية فيمكن القول بأن طقوس الزواج المقدس كانت في اطوارها الاولى بدائية وانها كانت تتسم بطابع الوحشية ولكن بمرور الزمن اصبحت دراما طقوسية لاتستلتزم اقامتها تضحية القائمين بادائها .

وتوجد اشارات في النصوص المسمارية من عصر سلالة لكش الاولى وسلالة لكش الثانية ( عصر كوديا) الى وجود الزواج المقدس والى قيام الامراء بدور الزوج الالهي دموزي . غير ان من اهم النصوص السومرية الخاصة باحتفالات الزواج المقدس ، والتي بحوزتنا في الوقت الحاضر سواء

من حيث الوضوح ام التفصيلات تعود إلى ملوك سلالة اور الثالثة مثل شولكي (٢٠٩٥ – ٢٠٤٨ ق . م) شوسين ( ٢٠٣٨ – ٢٠٣ق.م ) وإلى بعض ملوك سلالة ايسن الامورية مثل الملك ادن – دكان ( ١٩٧٤ – ١٩٥٤ق.م ) .

ويمكن القول على ضوء النصوص المسمارية الخاصة بالزواج المقدس ان اهم جزء فيه هو ما يعرف بتقرير المصير ( Decree of fate ) للملك والبلاد . اذ كان الاعتقاد لدى سكان بلاد وادي الرافدين ان الآلهة كانت تقرر المصير للملك والبلاد مرة في كل عام ولذلك يكون من الضروري ان يحصل الملك في خلال هذا الاحتفال على قرار من الآلهة يمنحه السلطة والتاج وشارات الحكم مجدداً و لسنة اخرى وان تحصل البلاد على مزيد من الخيرات والنعم في سبيل ان ينمو الزرع ويكثر المحصول وتأتي الانهار بمياه وافرة والاهوار باسماك وطيور كثيرة وان يتكاثر نبات القصب في الاهوار وتنمو الاشجار في السهول وان تزدهر البساتين فيكثر فيها الكرم والعسل . ولذلك يقوم احد الكهنة باخذ الملك ممثل الاله ( دموزي ) إلى زوجه الكاهنة (انانا) ويدعوها قائلا .

عسى ان يستمتع سيدى الذي دعوتيه الى قلبك
الملك زوجك المحبوب بايام طويلة من حجرك المقدس
وعسى ان تمنحيه حكماً صالحاً وممجدا
وتمنحيه عرش الملوكية على اسس مستديمة
وتمنحيه الصولجان والعصا والمحجن التي يقود بها الشعب
وتمنحيه تاجاً مستديماً واكليلا يرفع الرأس
وتمنحية من حيث تشرق الشمس إلى حيث تغرب الشمس.
من الجنوب الى الشمال
من البحر العلوى إلى البحر السفلي
من حيث تنمو شجرة الخولوبو (١) إلى حيث ينمو الارز

(١) لايعرف على وجه التحديد نوع هذه الشجرة ولكن يظهر من النصوص المسمارية انها ربما كانت شجرة الصفصاف او البلوط.

ذلك على أشكال وأنواع وطرز مخلفات الانسان،منها العصور الحجرية القديمة والوسيطة والحديثة والعصر الحجري المعدني وكل من هذه العصور يتفرع إلى أدوار ثانوية أخرى ولم تكن حياة وحضارة الانسان في مصر تختلف عنها في العـراق في العصور الحجرية أو العصر الحجري المعدني إلا من حيث الجزئيات وبعض التفصيلات ،وعثر على آثار الانسان من هذه العصور جميعاً في مناطق مختلفة من مصر .

**ثانيا : بداية الاسرات**

يضم هذا العصر عهد الاسرتين الاولى والثانية وهناك من يضع الاسرة الثالثة ضمن هذا العصر ايضاً و[illegible] قيام الاسرة الاولى في مصر في مطلع العصور التاريخية عندما تمكن «م[illegible] توحيد مملكة مصر العليا ومملكة مصر السفلى في مملكة واحدة .

ان معلوماتنا عن عصر بداية الاسرات قليلة وغامضة وجلها مستمد من بقايا المقابر التي يظن انها تعود الى هذه الفترة ومن النصوص الهيروغليفية .

ويبدو ان البلاد كانت قبل قيام الاسرة الاولى منقسمة على نفسها الى اثنين واربعين اقليماً موزعين في الشمال والجنوب وكان كل اقليم من هذه الاقاليم يسمى « نومي » ، وكان لكل « نومي » نظمه وتقاليده واعرافه الخاصة واسلوب ادارته ومعتقداته الدينية . ثم بدأت محاولات توحيد هذه الاقاليم وضمها الى بعضها فقامت مملكة مصر العليا في الجنوب ومملكة مصر السفلى في الشمال وضمت كل منهما الاقاليم الواقعة في منطقتها . وعندما قامت الاسرة الاولى، وحدت بين هاتين المملكتين ووضعتهما تحت ادارة مركزية واحدة . وتذكر المآثر القديمة ان الملك «منا» هو مؤسس الاسرة الاولى وموحد المملكتين وانه قام ايضاً بتأسيس مدينة منفس واختار موقعها وسطاً بين مصر العليا ومصر السفلى . ان معلوماتنا التاريخية عن الاسرة الاولى والثانية قليلة نسبياً ولكننا نعرف ان ملوك هاتين الاسرتين لقبوا انفسهم بلقب ملك مصر العليا والسفلى اشارة الى وحدة القطرين .

## ثالثا : الدولة القديمة

تشمل الدولة القديمة عصر الاسرة الثالثة حتى نهاية الاسرة السادسة وتقع فترة حكمها بين عامي ٢٧٨٠ و ٢٢٧٠ ق.م. ، اي انها تقابل تقريباً مايعرف في تاريخ العراق القديم بعصور فجر السلالات والقسم الاكبر من العهد الأكدي .

ان ماخلفته الدولة القديمة من آثار قائمة يعد بحق من اعظم وافخم ماخلفته الحضارة المصرية قاطبة ، فالى هذا العهد تعود الاهرامات الكبرى وكثير من المعابد والمسلات والتماثيل التي تحكي قصة الازدهار الحضاري الذي وصلت إليه مصر. وقد اطلق كثير من الباحثين اسم « عصر الاهرام » على هذه الفترة لفخامة الاهرام التي شيدت فيها لاول مرة . اضافة الى الفن المعماري وفن النحت وازدهارهما في هذه الفترة فقد تميز عصر الدولة القديمة بوحدة البلاد والقضاء على الانقسام الذي بدأت محاولاته في عهد الاسرة الثانية . كما تميزت هذه الفترة بنظامها الاداري الدقيق المعتمد على تاليه الملك وتقديسه وسيطرته الكاملة وسلطانه المطلق على البلاد ومافيها لاسيما في القسم الاول من عهد الدولة القديمة ومنذ عصر الاسرة الخامسة ، طرأ تغيير واضح على السياسة العامة في البلاد وتغيرت نظرة الناس الى الملك حيث احتل الاله رع المركز الاول بين العبادات وتضاءل مركز الملك تدريجياً امامه وغدا ابناً للاله رع فحسب . ومع هذا ظلت سلطة الملك مطلقة لاتقيدها الحدود وربما امكن تشبيه النظام السياسي الذي ساد البلاد في عهد الدولة القديمة بشكل الهرم حيث يقف الملك على رأس الهرم ويليه الامراء والنبلاء والحكام الى ان نصل الى قاعدة الهرم حيث عامة الناس ترزح تحت نير الحكم المستبد ..

وقد عرف لقب فرعون في عهد الاسرة الرابعة وكان يطلق للدلالة على القصر الذي كان يسكن فيه الملك،ويعني حرفياً « البيت الكبير » .ونظراً لرغبة المصريين القدماء تحاشي ذكر اسم الملك وتجنب الاشارة اليه مباشرة لقدسية وعظمته ، فقد كانوا يشيرون الى القصر الذي يسكن فيه ويقصدون الملك

نفسه . ولم يستخدم لقب فرعون للدلالة على الملك نفسه رسمياً الا منذ عهد الاسرة الثامنة عشرة .

وكان زوسر اشهر ملوك الاسرة الثالثة وهو مؤسس السلالة الجديدة وباني هرم سقارة المدرج . وقد انتقل مقر الحكم في عهد هذه الاسرة الى منفس جوار القاهرة وظل كذلك حتى نهاية عهد الدولة القديمة . ومن ملوك الاسرة الرابعة المشهورين الملك خوفو والملك خفرع والملك منكورع الذين تنسب اليهم اضخم واعظم الاثار المصرية قاطبة وهي اهرامات الجيزة الكبرى الثلاث .

ومنذ اواسط الاسرة الخامسة بدأ الضعف يدب في جسم الدولة القديمة [illegible] التدهور الاقتصادي الذي اصاب البلاد من جراء بذخ [illegible] على بناء الاهرام والمعابد ونتيجة تذمر النبلاء والامراء وحكام [illegible] من السياسة المركزية التي اتبعها الملوك ورغبتهم في الاستقلال عن سلطة الحكومة المركزية وتوريث مراكزهم الى ابنائهم من بعدهم . وهكذا زاد الحكام من نفوذهم وسيطرتهم في اقاليمهم المحلية وقلصوا من ارتباطهم بالحكومة المركزية واتخذوا لهم مقابر خاصة في الاقاليم بعد ان كانوا يدفنون الى جوار الملك .

ومن الاثار المهمة والرائعة التي جاءتنا من عهد الدولة القديمة اضافة الى الاهرامات الثلاث تمثال ابو الهول الذي يمثل رأس ملك بجسم اسد وتمثال شيخ البلد وتمثال الملك خفرع المنحوت من حجر الديوريت .

**رابعا : عصر اللامركزية الاول**

دخلت مصر منذ أواخر عصر الاسرة السادسة في فترة من الاضطراب والارتباك السياسي العام وتمزقت وحدتها بعد نهاية الاسرة السادسة وقل شأن الحكومة المركزية واستقل الحكام والامراء كل في اقليمه وادعى نفسه ملكـاً وقامت الحروب والمنازعات بينهـــم للاستحواذ على السلطة . ودامت فترة الانقسام والاضطراب هذه مايقرب من ١٧٠ عاماً حكم خلالها أربع . سلالات (٢٢٧٠ ـ ٢١٠٠ ق.م) ولم يكن للاسرالحاكمة في العاصمة نفوذ كبير وسلطة

كاملة على أرجاء المملكة . ومع هـــــذا الارتباك والقلـق ، الا أن البـلاد شهدت في هذه الفترة انتعاشاً في أحوال الطبقة المتوسطة من المجتمع وعمت خلالها الروح الفردية وظهرت مبادىء سياسية وعقائد دينية متحررة.

خامساً : الدولة الوسطى

تمكنت طيبة في حدود ٢١٠٠ ق.م. من السيطرة على البلاد واعادت وحدتها وأقامت لها سلالة جديدة هي الاسرة الحادية عشرة وكانت بداية لعهد جديد عرف بعهد الدولة الوسطى الذي استمر حتى عام ١٧٨٨ ق.م.

تركت لنا هذه الفترة آثاراً ضخمة رائعة منها المعابد الشهيرة الخاصة بالاله آمون في الكرنك ومعابد الاله رع في مدينة الشمس هليوبوليس.

كما انفتحت مصر في هذه الفترة ،ولاسيما في عهد الاسرة الثانية عشرة،إلى الخارج واتصلت ببلدان الشرق الأدنى القديم وتاجرت معها لجلب المواد اللازمة لبناء المعابد واقامة المسلات واتصلت بجزر البحر المتوسط كما غزت ليبيا وبلاد النوبة . وكان هدف مصر من غزو النوبة هو استغلال مناجم الذهب فيها وكان من نتائج هذا الانفتاح والاتصال ببلدان الشرق ان تأثرت مصر واثرت في حضارات الشرق القديم وعـــم الرخاء الاقتصادي فشيدت المعابد والقصور وأقيمت المسلات والتماثيل وازدهرت الفنون وانتعشت اللغة حتى أصبح عصر الدولة الوسطى، في نظر المصريين الذين جاؤا في العصور المتأخرة ، العصر المثالي والذهبي بالنسبة إلى اللغة المصرية وآدابها وغدت مخلفاتها الأدبية نموذجاً للادب والاسلوب الجيد .

عرف ملوك الاسرة الثانية عشرة باحد اسمين هما أمينمحت أو سنوسرت ،ولم يتمتع ملوك الدولة الوسطى بسلطة مطلقة غير محدودة كملوك الدولة القديمة إذأن الحكام والامراء ظلوا يشعرون بقوتهم واستقلالهم إلى جانب الملك ،

## المبحث الثالث

# المجتمع

### الاسرة والمجتمع

كانت الاسرة في بلاد وادي النيل ، شأنها في ذلك شأن [illegible] تشكل العمود الفقري للمجتمع ، وكان للمرأة دوراً بارزاً في الا[illegible] والمجتمع على حد سواء . فالزواج في مصر كان يقوم من حيث المبدأ على زوجة واحدة شرعية هي « الزوجة المحبوبة » و« سيدة المنزل » والتي كان يساعدها في ادارة شؤون بيتها عدد من الاماء . وقد حفظت لنا المنحوتات من مصر القديمة مشاهد كثيرة تصور العلاقة الوثيقة بين الزوج وزوجته وابنائه . فكثيرا ما صوروا على هذه المنحوتات بوضعيات توحي بالمحبة المتبادلة بين افراد الاسرة كافة . ويعتبر تعدد الزوجات حالة استثنائية ومع ذلك فهناك اشارات في الوثائق القديمة تدل على ان بعض الافراد وحتى الملوك كانت لهم اكثر من زوجة فرمسيس الثاني ( ١٣٠٠ – ١٢٩٠ ق.م ) على سبيل المثال كانت له زوجتان الاولى تفترا – مرني – موت والثانية اسي – نفرى والاخيرة والدة خلفه الملك منبتاح . اما عادة التسري ، اي اتخاذ سراري اضافة إلى الزوجة الشرعية ، فكانت معروفة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة وخاصة المرفهة منها .

اما سن الزواج فيبدو انه كان مبكرا في وادي النيل حيث كان الشبان يتزوجون في سن الخامسة عشرة والبنات في سن الثالثة عشر . اما عقد الزواج وما يتضمنه من تفاصيل فانها ماتزال مجهولة لعدم حصولنا على نماذج منها في العصور القديمة في مصر على عكس بلاد وادي الرافدين التي نعرف عن عقد الزواج فيها تفاصيل وافية والتي كان العقد فيها يعتبر امرا اساسياً للاعتراف بالزواج من الوجهة القانونية . وعلى اية حال فمما لاشك فيه ان الزواج في مصر في العصور القديمة كان يقوم على كتابة عقد على غرار ماكان يجري في العصور المتأخرة (١).

(١) اقدم عقد زواج في مصر يعود تاريخه إلى القرن الرابع ق.م

وكان احترام الام وتقديرها امرا واجباً وظاهرة ملموسة في العائلة المصرية القديمة وكثيرا ما اوصى الحكماء المصريون الابناء خيرا بامهاتهم ومن ذلك قول احدهم : « يجب عليك الا تنس امك وكل ما عملته من اجلك فأذا نسيتها فانها تستطيع ان تلومك وترفع اذرعها إلى الله فيستمع الى نداءها.فهي قد حملتك طويلا تحت القلب عبئاً ثقيلا وبعد ان انتهت شهورك ولدتك .. كان ثديها طوال ثلاث سنوات في فمك » .

ومهما كانت علاقة الابناء بامهاتهم وثيقة فقد كان الحب والاحترام للاباء ظاهرة واضحة في العائلة المصرية . ونذكر هنا على سبيل المثال ان احد الابناء المصريين في زمن السلالة السادسة ترك وصية قبل وفاته طلب فيها ان يدفن إلى جوار أبيه وذلك حسب قوله من اجل « ان يراه في كل يوم وان يكون معه في كل مكان». ونسمع من رجل اخر انه احضر جثة ابيه الذي توفي في بلاد النوبة لكي يدفنه في وطنه في مصر طبقاً للطقوس المصرية (١) .

وهناك مسألة مازال الباحثون مختلفون حولها وذلك لغموضها في النصوص الكتابية المصرية الا وهي زواج الشخص بأخته وهي عادة كانت متبعة في عصري البطالسة والرومان في مصر . اما بالنسبة للمصريين في العصور القديمة فيرى بعض الباحثين ان هذه العادة ربما كانت منتشرة في عائلة الملك من اجل تحقيق فكرة الاحتفاظ بنقاء الدم في العائلة الحاكمة . ويرى باحثون آخرون ان كلمة « أخي » أو « أختي » التي يتخاطب بها المحبون في اغنيات الحب المصرية قد استعملت استعمالا مجازياً ليس غير وانه لايُراد منها سوى التعبير عن صدق وعمق تلك العلاقة القائمة بين الحبيبين والتي تعتبر الاخوة بما تنطوي عليه من حب عميق ومشاعر صادقة نموذجاً مثالياً لها .

وقد حرص الاباء المصريون على تربية اولادهم وتعليمهم الاخلاق الفاضلة واتباع العادات والتقاليد الاجتماعية الصحيحة . وقد وصلتنا كتابات مطولة

(١) ادولف ارمان وهرمان رانكة، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة (مترجم) ص١٦٤ – ١٦٥.

تحمل نماذج من وصايا الاباء الى ابنائهم بهذا الخصوص وهي تتضمن آداب
الحديث مع الناس واصول التعامل معهم وفي ادناه نقتبس نموذجاً من تلك الوصايا
مما جاء على لسان احد الاباء وهو يقول لأبنه :

«ولا تتكلم في المجالس الا اذا كان لديك ماتريد ان تقوله حقاً .
وحين ذاك يجب عليك ان تكون فناناً لان الكلام اصعب من اي عمل آخر
والوشاية لاينبغي للمرء ان يعيدها ، اما الرسائل فينبغي ان تؤدى بامانة
وطبقاً لحرفيتها . واذا كنت في منزل غريب فلا تنظر إلى النساء بل تروح
واعط بسخاء مما لديك لمن تثق بهم . وعند التقسيم تجنب النزاع وعندما
تجلس إلى مائدة احد الكبراء فخذ اذا أعطاك مما هو موجود امامك ولا
تنظر إلى ما هو موجود امامه بل انظر إلى ما وضع امامك انت .......
أضحك عندما يضحك فأن هذا ما يبهج قلبه » .

وهـا هو أب آخر يقدم النصح لأبنه فيقول :
«كن مجتهداً لأن الرجل الذي يظل عاطلا خاملا لايكون شيئاً وعندما
ترى عبنك شيئاً فالزم الصمت ولا تبح به لأي شخص كان في الخارج
حتى لاتكون تلك جريمة كبرى عندما يصل امره إلى الاسماع . ولا تكثر من
الكلام فالصمت خير لك ولذلك فلا تتحدث وكن قبل كل شيء حريصاً في
كلامك اذ ان هلاك المرء في لسانه . ان جسم الانسان اوسع من مخزن للغلال
وهو مليء بجميع انواع الاجابات . فاختر منها اجابة جيدة وقلها واحتفظ
منها حبيساً في جسمك . لاتكن شرهاً في ملء جسمك وتأكل الخبز في حين
يقف آخر على مقربة منك دون ان تمد يديك اليه بالخبز . فهناك الغني وهناك
الفقير . لاتجلس على حين يقف من هو اكبر منك سناً او ارفع مقاماً» .
اما المجتمع المصرى فكان يتألف من ثلاث طبقات اجتماعية يأتي على رأسها
الملك ( الفرعون ) . وتتمثل الطبقة الاولى بالنبلاء والاغنياء وكبار موظفي
الدولة والكهنة . وتليها الطبقة الوسطى التي يؤلفها جمهور الصناع والعمال
والفلاحين . اما الطبقة الثالثة فكانت تتمثل بالارقاء .

والمعروف عن الملك في حضارة وادي النيل انه كان الهاً . اذ اعتقد المصريون بان الاله نزل وتجسد في شخص الفرعون وهذا بطبيعة الحال يخالف تماماً ما معروف عن الملك في بلاد وادي الرافدين الذي كان مجرد مفوض او ممثل من البشر اختارته الالهة لمسؤولية الحكم . ولهذا نجد ان الملك في وادي الرافدين لم يصل في اية مرحلة من مراحل التاريخ القديم إلى مرتبة الالوهية في حين عبد المصريون ملوكهم بصفتهم آلهة . وقد اعطاهم ذلك شعورا بالاطمئنان ازاء القوى والظواهر الطبيعية المختلفة لك[illegible]أس مجتمعهم واحدا من الالهة له القدرة على الهيمنة والسيطرة عليها في حين لم يتبلور مثل هذا الشعور لدى سكان وادي الرافدين . وقد تركت هذه المعتقدات اثرا واضحاً في الفن المصري حيث يظهر في المشاهد الحربية وحده في اغلب الاحيان يقودون جيشه على عكس ملوك وادي الرافدين الذين يصورون وهم في مقدمة جيوشهم .

ولأن الفرعون كان الهاً في نظر المصريين القدماء فأنه عند موته كان يعتقد بأنه يستمر في حكم الاموات من البشر فهو يتجسد بالاله اوسيرس اله الاموات والعالم السفلي . اما الملك الجديد الذي يتسلم زمام الحكم من بعده فكان في نظرهم يصبح الاله هورس الذي خلف اوسيرس على النحو الذي سنأتي على ذكره في الاسطورة الخاصة باله الاموات اوسيرس [illegible] جرت العادة ان يرمز إلى الفرعون المصري بالنسر الذي كان يبدو رمزا للاله هورس ( احد الاسماء العديدة لاله الشمس في مصر ) . ومن الالقاب الشهيرة التي [illegible] استحسانها في مصر للاشارة إلى الملوك اعتبارا من السلالة الثامنة عشرة لقب [illegible] العظيم » ولقب ابن رع الذي اطلق على الملوك ابتداء من المملكة القديمة [illegible] للاله رع ( اله الشمس ) يتجسد بالملك وهو عندما يتزوج وينجب يكون ولده [illegible] للاله رع - وبعد ان يتولى الملك الجديد منصبه ثم يموت فكان الاعتقاد [illegible] انها يرجع إلى اله الشمس رع .

ولأن الملك في مصر كان الهاً فأنه كان من الوجهة النظرية [illegible] ايضاً [illegible] المالك الحقيقي المطلق لكل البلاد . وللسبب نفسه فأنه اعتبر مصدرا لل[illegible]

ولم تكن الوهية الملك لتنتهي [illegible] وفاته ولهذا نشأت عادة تضحية الاتباع ودفنهم معه وهي ممارسة اقتصرت [illegible] على ما يبدو على السلالات الاولى فقط وبطلت منذ السلالة الرابعة .

اما الطبقة العليا في المجتمع والتي تأتي بعد الملك فكانت تتمثل بكبار موظفي الدولة وفي مقدمتهم الامراء والوزراء وكبار الكهنة وحتى هؤلاء كانوا في بعض الاحيان من الاسرة المالكة او ممن يمت اليها بصلة القرابة . وكما قلنا فأن الطبقة الوسطى كانت تتمثل بعـ[illegible] الشعب من اصحاب الحرف والصناعات على اختلاف أنواعها . وكان العبيد [illegible] أدنى الطبقات الاجتماعية . وكانت الحروب المصدر الاساسي للعبيد او الارقاء وهي طبقة كبيرة العدد في المجتمع المصري القديم . ونذكر على سبيل المثال ان الملك رمسيس الثالث اهدى ( ١١٣٠٠ ) عبدا للخدمة في المعابد [illegible] . ولا شك في ان الانجازات المعمارية الضخمة التي بقيت خالدة في مصر عبر العصور التاريخية هي حصيلة جهد وعرق هذه الطبقة المسحوقة [illegible] العبيد الاكبر في انجاز المشاريع الضخمة في بلاد وادي النيل

الفكر الديني :

عبد المصريون [illegible] ان لكل مدينة الهها الخاص بها الذي تعبده سكانها ويخصونه بالتقديس [illegible] يلوذون به وقت الازمات . ويصعب علينا هنا ذكر تلك الاعداد الكبيرة من الالهة ولكن نكتفي هنا بذكر ابرزها . ففي مدينة منفيس كان الاله بتاح وفي مدينة هليوبوليس الاله اتوم وفي طيبة الاله امون ... وهكذا كانت الهة اخرى تعبد في سائر انحاء القطر . وقد تصور المصريون القدماء ان الالهة كانت تتجسد باشكال وهيئات مختلفة . فتحل في أجسام الحيوانات وفي الظواهر الطبيعية على اختلاف انواعها . ولهذا فقد عبد المصريون انواعاً مختلفة من الحيوانات والظواهر الكونية . ولقد كان امرا طبيعياً ان تحتل البقرة والعجل مركز الصدارة بين هذه الحيوانات وخاصة في مجتمع زراعي كوادي النيل . ولهذا جسد المصريون القدماء في العجل آبيس الهاً هو

سفينة الشمس في السماء . كما تصوروا السماء بهيئة ثالثة وهي تقف على اعمدة أربعة . اما بخصوص سفينة الشمس فقد اعتقد المصريون القدماء ان اله الشمس يسير في سفينتين احداهما في النهار والاخرى في الليل وان هناك ملاحين من الالهة في السفينتين كما انهم عزوا كسوف الشمس الى تعرض اله الشمس الى ثعبان هائل يحول دون ظهوره .

اما ما يتعلق بخلق الكون فان هناك اساطير متعددة ومختلفة بعض الشيء في تفاصيلها . وعلى اية حال يمكن القول بصورة عامة ان المصريين اعتقدوا بان المكان الذي وجدت فيه الالهة منذ البدء كان على رابية او تل مرتفع وان اول من ظهر عليه كان اله الشمس اتوم . ومن الجائز ان يكون لهذا الاعتقاد اثر في نشأة الاهرامات الشامخة باعتبارها ترمز الى ذلك المرتفع وتشير الاساطير الى ان هذا الاله هو الذي اوجد نفسه على تل الخليقة وانه كان اول ملك على الكون(1). وانه بعد ذلك بصق او عطس فظهر بفعل ذلك اله الهواء ( شو ) واله الرطوبة ( تفنوت ) . ثم ولد في هذين الالهين الارض ( جيب ) والسماء ( فوت ) ثم اتحدت الارض (وقد تصورها المصريون عنصرا ذكراً خلافاً للعراقيين القدماء) مع السماء فولد عنها اربعة الهة وهم الالهان اوسيريس وسيث والالهتان ايزيس وتفنيس. وكان اوسيريس زوجاً لايزيس في حين تزوجت سيث من تفنيس.(2)

**المعابد والمقابر :**

كانت المعابد في مصر، شأنها في بقية بلدان الحضارات القديمة الاخرى، محلا مقدساً لعبادة الالهة واقامة الشعائر الدينية . والحقيقة هي ان معلوماتنا عن

---

(1) جدول ملخص عن خلق الكون في الاساطير المصرية القديمة، انظر طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة جـ2 ص109 – 114.

(2) ان مثل هذه الاساطير كانت من الاسباب التي دعت بعض الباحثين إلى الاعتقاد بوجود الزواج من الأخت في مصر القديمة ولكن كما قلنا في بداية حديثنا عن الاسرة ان هذا الموضوع يحتمل جوانب وتفسيرات اخرى.

معابد المملكة القديمة ( السلالتين الاولى والثانية ٣١٠٠ – ٢٧٨٠ قبل الميلاد ) والوسطى ( السلالات ٧ – ١٠ ٢٢٧٠ – ٢١٠٠ق.م) ضئيلة جدا لان معظم معابدها اصبحت تحت طبقات بنائية لمعابد المملكة الحديثة . ومع ذلك فقد كشفت التنقيبات الاثارية عن معبد لاله الشمس في هليوبوليس يعود تاريخه إلى زمن السلالة الخامسة ( عصر الاهرامات ). واهم مايلاحظ في هذا المعبد انه يختلف عن معابد العصور اللاحقة في المملكة الحديثة ( السلالات ١٨ – ٢٠) بأنه لايحتوي على الحجرة المقدسة المظلمة التي كان يوضع فيها تمثال الاله . وكان يحيط بالفناء الواسع لهذا المعبد ممر حجري وتشخص في وسط ذلك الفناء مسلة عالية مدببة ومموهة بالذهب وهي رمز لاله الشمس . وتوجد امام المسلة دكة المذبح التي كانت توضع عليها القرابين للاله . وتوجد بجوار المعبد سفينة اله الشمس التي شيدت باللبن والتي اعتقد المصريون القدماء بأن الاله كان يجوب خلالها السماء يومياً .

ويمكن القول بصورة عامة عن المعابد في المملكة الوسطى انها تتفق في معظمها مع معابد المملكة الحديثة وسنحاول في ادناه اعطاء ملخص مركز لمعبد من عصر المملكة الحديثة هو معبد الاله امون في الكرنك (١) .

فهناك اولا طريق مرصوف يؤدي إلى المعبد يحيط به على الجانبين صفاً من تماثيل ابي الهول. وينتهي هذا الطريق إلى صرح او عدة صروح تشكل واجهة المعبد وهي عبارة عن بوابات ضخمة تحيطها الابراج وكان الغرض منها التعبير عن القدسية والرهبة بجدرانها الملونة وساريات الاعلام التي فوقها والمسلات الحجرية التي امامها. ويأتي بعد هذه الواجهة ساحة كبيرة تنتهي إلى مدخل في الجدار الخلفي لهذه الساحة . ويؤدي هذا المدخل إلى قاعة الاعمدة وكانت الساحة سابقة الذكر وقاعة الاعمدة هذه المكانين المخصصين لاقامة الاحتفالات

(١) ان هذا الملخص عن معبد امون في الكرنك يعتمد بصورة رئيسية على ما كتبه ادولف ارمان وهرمان رانكة: مصر والحياة المصرية القديمة في العصور القديمة ص٣٠٣ وما بعدها

الدينية . وتؤدي قاعة الاعمدة إلى مايعرف بالمقصورة الوسطى ( Center Court ) وهذه المقصورة كانت تتكون بدورها من ثلاثة اقسام مظلمة : وسطى فيها تمثال الاله مع القارب المخصص لاله الشمس في حين كانت المقصورتان الجانبيتان مخصصتان لزوجته ولابنه . وكانت هذه الاجزاء الثلاثة التي تكون المقصورة الوسطى تعتبر اقدس الاماكن في المعبد ولهذا كان على داخلها ان يكون طاهراً بكل مافي هذه الكلمة من معنى حيث ترددت العبارة (على من يدخل المعبد ان يكون طاهراً) اربع مرات في الكتابات التي بجانب أبواب المقصورة الوسطى . وبطبيعة الحال كان المعبد يحتوي على العديد من الغرف الاخرى التي كانت تستعمل لخزن المواد المختلفة التابعة للمعبد.

**المقابر :**

رأينا من خلال حديثنا عن المجتمع في وادي النيل كيف أن المصريين القدماء اعتبروا الملك الها وكيف انه يتحد مع الاله بعد الموت في السماء . أما بالنسبة لعامة الناس فأنهم اعتقدوا بأن الانسان يتكون من ثلاثة اجزاء هي الجسم ثم الروح التي تصوروها تحلق كطير برأس بشري لتزور الاهه في القبر ثم عنصر أو كائن ثالث اطلقوا عليه ( كا ) والذي ربما كان القرين الذي يصاحب الانسان طيلة حياته ويضمن للانسان الحماية والبقاء ومسببات النجاح في الحياة . وكان ضرورياً ان يبقى (الكا ) متمتعاً بالحياة بعد موت الانسان ومن أجل ذلك فقد كان لزاماً المحافظة على جسم الميت سليماً ليحل فيه ( الكا ) متى شاء وكان لزاماً أيضاً وضع تمثال للميت في القبر حتى يستطيع القرين (كا ) من التعرف على سماته المميزة والعودة اليه . وأهم من هذا وذاك فان توفير الطعام والشراب إلى هذا القرين كان من المستلزمات الضرورية في سبيل اشباع الميت . ولهذا كله كان تقديم القرابين إلى الموتى بصورة مستمرة امرا مهما في العقيدة الدينية للمصريين القدماء كما كان الحفاظ على جسم الميت سليماً من الامور المهمة هو الآخر . وهذا مايفسر الجهود الكبيرة التي بذلها المصريون في تحنيط موتاهم وفي اقامة المقابر والاهرامات .

ولقد مرت المقابر في بلاد وادي النيل بسلسلة من التطورات المعمارية التي انتهت بظهور الهرم . ففي عصور ماقبل التاريخ كان القبر مجرد حفرة متواضعة توضع فيها الجثة لتستقر في رمال الصحراء وكان يوضع معها ما يحتاجه الميت من أوان للشراب والطعام وحاجيات مختلفة أخرى . وبطبيعة الحال لم تكن مثل هذه الطريقة في الدفن مضمونة لسلامة الجسم سواء في تعرضها إلى محاولات النبش او إلى الظواهر الطبيعية المختلفة . ولهذا من أجل الحفاظ على الجسم فقد بدأ المصريون القدماء بناء كتلة مستطيلة من اللبن فوق القبر تعرف بالمصطلح المعماري المعروف المصطبة لانها تشبه مقاعد الجلوس ( المصطبة ) التي تبنى عادة من الطين امام مساكن الفلاحين في مصر وجدير بالذكر ان هذه المصطبة كانت تميز قبور الملوك والامراء عن قبور العامة التي ظلت عبارة عن حفرة بسيطة في الرمال الصحراوية . وكانت المصطبة هذه تخفي تحتها حفرة القبر التي كانت تسقف عادة وتقسم إلى عدة اجزاء توضع في احدها جثة الميت في تابوت خشبي بينما تستعمل الاجزاء الاخرى لخزن الحاجيات المختلفة العائدة له . وهذا النوع من المصاطب كان معروفاً في وادي النيل خلال فترة حكم السلالة الاولى .

وفي مرحلة أخرى من مراحل تطور المصطبة ابتداء من زمن السلالة الثالثة ومعابدها اصبحت المصطبة تأخذ شكلا مدرجاً فعرفت لذلك بالمصطبة المدرجة . وفي الوقت الذي صار الملوك يدفنون في الاهرامات التي تعتبر ميزة معمارية في مصر ابتداء من عصر الاهرام ( السلالات ٣ – ٦ ) اصبحت المصاطب المدرجة مدافن للعظماء والطبقة الغنية والتي تبنى حول الهرم بشكل منسق . وقد اصبحت المصطبة المدرجة تنقر في الصخر ويؤدي اليها منحدر عمودي من سطح المصطبة . وبعد ان توضع الجثة في التابوت في غرفة الدفن كان يجري غلق المنحدر العمودي بكتل كبيرة من الحجر . وكان البناء الارضي يحتوي بالاضافة إلى ذلك عدد من الغرف منها المصلى الذي يتجه عادة الى الغرب ( حيث تصور المصريون انه المدخل إلى موطن الموتى ) وعلى باب

غير نافذة تكتب عليها الصلوات والادعية واسم المتوفي. وبالاضافة إلى ذلك فقد كان جوف المصطبة يضم غرفا اخرى عديدة تحيط بقبر الميت منها غرفة القرابين التي كان امامها دكة مدرجة تقدم عليها القرابين وتحتوي عادة على تمثال الميت وقد زينت جدران الغرف هذه الكتابات والصور فيها تفاصيل وافية عن الميت والمناصب التي شغلها وعن ممتلكاته ومستخدميه وغير ذلك مما يتعلق به .

وكان تشييع الجنازة يأخذ عادة شكل موكب مهيب . ولايعرف على وجه التحديد المدة التي كانت تفصل بين الوفاة وبين تشييع الجنازة إلى مقرها الاخير لسبب بسيط وهو أنه كان لزاماً نقل الجثة المحنطة وخاصة من العظماء والاغنياء في رحلــة إلى مدينـة ابيدوس موطن اوسيريس اله الموتى . وعلى اية حال فعندما يحين موعد التشييع كان التابوت يوضـع في قارب مزين توضع فوقه الزهور وتصحبه قوارب اخرى تحمل اهل الميت وذويـه ومنهم النسوة اللواتي كن يندبن ويبكين الفقيد . وعندما يصـل موكب التشييع ، بعد مسيرة نهرية في النيل، إلى المكان المخصص للدفن يحمـل الزورق الذي فيه التابوت على زحافات تجرها الثيران وتتقدمه باقات الورد والقرابين . وعندها يبدأ الكاهن المختص باقامة الطقوس اللازمة امـام المومياء مع دعاء او ترتيلة معينة في حين يقوم كاهن آخر بحرق البخور وهنـا يعلو صراخ وبكاء النسوة . وها هي احداهن تحتضن مومياء ابيها المتوفي بين ذراعيها قائلة له «أيتها العظيم لاتتركني . لكم أنت جميل يا ابي الطيب ، كيف يحدث أن أكون بعيدة عنك ؟ اني اذهب الآن وحدي .... انت يامن يحلو لك الكلام اصبحت صامتاً لاتنبس ببنت شفة» .

أما مايتعلق بالطقوس التي تقام على روح الميت فأنهـا كانت تتضمن تقديـم القرابين وحرق البخور بالدرجة الأولى وخاصة في أيام الاعياد. ولعـل من أهم ما يذكر بهذا الخصوص هو ذبح ثور أو بقرة تضحية للميت . امـا على المدى

الطويل فقد حرص ذوو الميت واقرباؤه ، وخاصة من الطبقات الغنيـة ، على استمرار تقديم النذور والقرابين إلى المتوفي وذلك بطريقة حبس اوقـاف خاصة للصرف على مقابر موتاهم وقد تشمل احياناً قريـة مع ما[illegible] من ارباح كل هذه الاوقاف .

## المبحث الخامس

# التحنيط وطرقه

من معتقدات المصريين القدماء الاساسية الاعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الموت ، فموت الانسان لايعني نهايته وفناؤه الى الابد بل انه انتقال من الحياة الدنيا الى حياة ثانية تختلف في مكانها واساوبها عن الحياة الاولى . وتعتمد سعادة وراحة الانسان في حياته الثانية على مدى احتفاظ جسمه بعد الموت بهيئته الاصلية.لذا كان اهتمام المصريين القدماء بقبورهم كبيراً فاق اهتمامهم بمساكنهم الدنيوية كما زودت القبور بكل ما قد يحتاجه الموتى من مأكل وملبس واثاث وحلي في حياتهم الثانية . واخيراً ، ابتدع المصريون القدماء طريقة فنية رائعة لصيانة الجسم من البلى والتعفن والمحافظة على هيئته الاصلية بعد الموت قدر المستطاع وتسمى هذه الطريقة بالتحنيط . والتحنيط لغة هو استخدام الحنوط والحناط ، وهو طيب يخلط للميت خاصة،وهو كل ما يطيب به الميت من مسك وذريرة وصندل وعنبر وكافور وغير ذلك مما يذر عليه تطيباً له وتجفيفاً لرطوبته . ويقابل الكلمة بالانكليزية كلمة Embalming من الاصل اللاتيني embalm اي حفظ الاشياء في البلسم . ويطلق مجازاً على الجسم المحنط اسم مومياء وذلك لان لون الجسم المحنط المائل للسواد يشبه اللون المعروف للمادة التي تسمى مومياء ، وهي مادة قارية كانت تستخدم احياناً كدواء عام للاوجاع النفسية (١) .

ولا يعرف على وجه التحديد كيف ومتى بدأت فكرة التحنيط عند المصريين القدماء حيث ان اقدم المحنطات المكتشفة لايتجاوز عمرها عهد الدولة القديمة . وربما استدل الانسان المصري القديم على امكانية المحافظة على جسم الميت لفترة طويلة بعد الوفاة إذا ما دفن في حواف الصحراء ، وهي الطريقة التي كانت شائعة منذ اقدم العصور. ولم يفطن القدماء بطبيعة الحال الى السبب الفعلي لذلك ولم

---

(١) انظر : نجيب ميخائيل، مصر والشرق الادنى القديم، ج ٢ صفحة ٣٥٤.

يردوه الى جفاف رمال الصحراء وخاصيتها في المحافظة على المواد العضوية ، بل انهم نسبوا ذلك الى قدرة الهية مسيطرة وتخيلوا لذلك الهاً خاصاً بالصحراء سموه الاله «انبو »واعتبروه راعياً لجثث الموتى وقادراً على حفظها كما اعتبر الها للتحنيط ورمزوا اليه بهيئة ابن آوى .

ولم يقتصر التحنيط على الملوك والنبلاء والاثرياء ، كما تشير الى ذلك المكتشفات الاثرية ، بل شملت مختلف طبقات الناس بل ان المصريين القدماء حنطوا اجسام بعض الحيوانات المقدسة ايضاً كالقطط والصقور والقردة والكباش والعجول والتماسيح . واستمر المصريون القدماء باستخدام طريقة التحنيط بعد عهد الدولة الحديثة غير ان التحنيط اقتصر احياناً على حشو الجثة بالقار وقـد ظلت عادة التحنيط موجودة في مصر حتى بعد العهد المسيحي وبطل استخدامها في حدود القرن الرابع الميلادي . ولعلنا نجد بعض بقايا عادات التحنيط وطقوسه في طقوس وعادات دفن الموتى حتى الوقت الحاضر لاسيما في مصر منها عادة رش العطور ووضع البهار وبعض المواد الحافظـة على جسم الميت وربما كانت عادة غسل الميت ووضعه في تابوت خشبي وعدم استخدام المعدن في تثبيت التوابيت ترجع باصولها الى تاريخ مصر القديم ايضاً .

وقبل الحديث عن انواع التوابيت التي استخدمت لوضع الجثث المحنطة فيها لابد من الاشارة الى اماكن التحنيط فقد اظهرت التنقيبات التي اجريت في مصر غرفة كاملة للتحنيط لعلها الغرفة الوحيدة من نوعها التي امكن الكشف عنها حتى الآن . وتقع الغرفة عند مدخل احد السراديب الطويلة التي نحتت في الصخور وخصصت لدفن بعض انواع الحيوانات . يفتح بـاب الغرفة من الضلع الجنوبي اما في الضلع الشرقي فيمتد سرير حجري رأسـه من ناحية الشمال وينحدر قليلا الى ناحية الجنوب وفي وسط الضلع الجنوبي فتحة صغيرة . وعثر تحت السرير على كتل خشبية محترقة . والى الركن الشمالي الغربي من الغرفة كتلة حجرية كبيرة عبارة عن حوض مليء بمواد بيتومينية وعلى ارض الغرفة مجموعة من الاواني (١) .

(١) انظر وصف الغرفة : نجيب ميخائيل، المصدر السابق، صفحة ٢٦٠.

يعد التابوت اهم قطعة في الاثاث الجنائزي وكان الغرض منه المحافظة على الجثة . وقبل عصر بداية الاسرات ، كانت جثث الموتى تلف بالحصير او بجلد حيوان ثم استعملت السلال لوضع الجثث فيها ومن ثم دفنها في الحفرة المعدة لذلك . ومنذ عهد الاسرة الاولى ظهر استعمال التابوت الخشبي . وقد شهدت صناعة صناديق التوابيت تطورات مختلفة منذ ذلك الحين من حيث الشكل العام والزخرفة والصناعة . ففي عهد الاسرة الاولى كان التابوت صغيراً يتسع للجثة وهي مقرفصة وفي عهد الاسرة الثانية ظهر التابوت الخشبي الذي يتسع للجثة وهي ممددة .

ويمثل الشكل الخارجي للتابوت الخشبي شكل منزل من واجهة الباب وقد ظهرت فيه الشبابيك والستائر والسقف المسطح . ولا بد ان الغرض من ذلك كان امداد الميت بشكل رمزي للبيت الذي سيقيم فيه في العالم الثاني .

ومنذ عهد الاسرة الثالثة بدأ استعمال الحجر في صناعة التوابيت الى جانب الخشب واستعملت الاحجار الصلدة لصناعة التوابيت منذ الاسرة الرابعة ونحتت على جوانب التوابيت الطويلة واجهات القصور والمنازل بالاسلوب القديم نفسه وفي عهد الاسرة الخامسة بدأ استخدام نص التقدمة بعد اسم والقاب الميت . اما في زمن الاسرة السادسة فقد بدأ رسم العينين على الجانب الشرقي من التابوت مقابل الرأس ، وفي اعقاب الدولة القديمة ظهرت عادة كتابة بعض النصوص الطقوسية والدينية على جدران التوابيت من الداخل والتي عرفت بمتون التوابيت . وكانت ترسم او تحفر وتلون . وقد تضمنت هذه النصوص الادعية والصلوات والارشادات الى الميت والتعاويذ السحرية لدرء الاخطار عن الميت في عالمه الثاني كما تضمنت احياناً خرائط طريقة للعالم الآخر . وقد افادت هذه النصوص كثيراً في التعرف على معتقدات المصريين القدماء وتصوراتهم للعالم الثاني .

وفي عهد الدولة الوسطى استخدم التابوت الحجري وفي داخله تابوت خشبي كما ظهر ما يعرف بالتابوت الادمي ، وهو تابوت على هيئة الجثة المحنطة بعد تغليفها بلفائف الكتان ، وربما كان الغرض من هذه التوابيت احلالها محل

التماثيل الجنائزية او تسهيل مهمة التعرف على الجثث المحنطة عند عودة الارواح .

وفي عهد الدولة الحديثة استعيض عن رسوم القصور والبيوت التي كانت تغطي الواجهات الخارجية من التابوت بمناظر وزخارف جديدة عن الالهة ورحلة الميت الى الشمس وغيرها من المشاهد .

وكانت العادة في التوابيت الادمية ان يلون الوجه باللون الاحمر ان كان الميت رجلا واللون الاصفر ان كان خاصاً بامرأة .

وقبل ان يقفل التابوت على الجثة المحنطة كانت توضع فيه مقتنيات الميت الشخصية من اسلحة وملابس ومرايا وغيرها . اضافة الى ذلك ، كانت توضع مع الجثة نماذج مصغرة وملونه تمثل العمال والصناع وهم ما ضون في اعمالهم والخدم وهم يحملون الطعام والقوارب باشرعتها ومجاذيفها والناس في بيوتهم وقد أفادت هذه النماذج كثيراً في دراسة الحياة في مصر بشكل عام .

وكان المصريون القدماء يدفنون موتاهم في الرمال الصحراوية الجافة المعرضة لحرارة الشمس القوية ويلفون الجثث احياناً بجلود بعض الحيوانات او بحصير من القصب . ومنذ بداية عصر الاسرات بدأت اولى محاولات التحنيط ثم تطورت في عهد الدولة القديمة فكانت الجثة تلف بلفائف من الكتان المحيطة بالاعضاء وقد شبعت بالراتنج وغطي الوجه بمادة شبه كرتونية مثل عليها شكل الميت وهكذا كانت اول محاولات صناعة شبيه الجسم من الكتان والراتنج المضغوط الذي يوضح اجزاء الوجه بالالوان في عهد الدولة القديمة.

وفي عهد الدولة الوسطى استعمل الراتنج مخلوطاً بنشارة الخشب لحشو فراغات الجسم حيث تشير المكتشفات ان الجسم كان يفرغ من الاحشاء الداخلية. ومنذ بداية عهد الدولة الحديثة وصل التحنيط إلى الكمال.

ولاتزودنا النصوص المصرية القديمة بتفاصيل عملية التحنيط وطرقه غير ان الكتاب الاغريق والرومان، ومنهم هيرودوتس وديودورس، وصفوا لنا التحنيط وصفاً دقيقاً وقد اثبتت الدراسات الحديثة التي اجريت على الموميات

المكتشفة صحة وصفهم ودقته . وتشير احدى البرديات من عصر الأسرة الثامنة عشر إلى ان الميت كان يخرج سعيداً من غرفة العمليات (التحنيط) وتعمل له تسع احتفالات خلال ٣٦ يوماً كما تشير النصوص الاخرى ان المدة التي كانت تستغرقها عملية التحنيط تتراوح بين بضعة ايام وسبعين يوماً كما كان هناك ثلاث طرق للتحنيط تتفاوت في تكاليفها ومدى اتقانها كما تتفاوت في مدة اكمالها.

اما الطريقة الاولى ، وهي الطريقة الاكثر كلفة ودقة واتقاناً ، فكانت خاصة بالاسرة الحاكمة والنبلاء والاثرياء وكانت كلفتها تزيد عن وزنة من الفضة (١) . وكانت هذه الطريقة تتضمن اخراج اجزاء المخ من الجمجمة ويلي ذلك عمل فتحة في جانب الخصر بقطعة مدببة من الحجر الحبشي لاخراج الاحشاء منها باستثناء القلب والكليتين. ويروى هيردوتس ان الكاهن الخاص بفتح البطن كان يرمي الحجر الذي فتح به البطن ويفر هارباً لايلوى على شيء في حين يتابع الحاضرون ضربه بالحجارة ربما لتخوفهم من فتح جسم الانسان. بعد ذلك ينظف الجسم بالنبيذ ويطهر بالبخور ويملأ فراغه عقب ذلك بمسحوق المر والقرفة وبعض العطور والتوابل ثم تخاط الفتحة وتغمس الجثة في محلول النطرون مدة سبعين يوماً تخرج بعدها وتغسل وتلف بنسيج الكتان المشبع بالراتنج وتوسد داخل تابوتها الخشبي الجميل.

اما الطريقة الثانية، وكانت كلفتها مايقرب من ربع وزنة من الفضة ،فكان مؤداها حقن فراغ الجسم الداخلي بزيت الارز من فتحة الشرج وسدها بعد ذلك حتى لايرتد الزيت، ويلي ذلك غمس الجثة في حمام النطرون لمدة سبعين يوماً ثم يسمح للزيت بالخروج ومعه جميع الاحشاء الداخلية التي اذابها ثم تعاد الجثة إلى اهلها دون لفها.

اما الطريقة الثالثة،وكانت كلفتها قليلة جداً، فكانت مقصورة على غمس جثة الميت في النطرون لمدة سبعين يوماً ومن ثم تسليمها إلى اهلها.

(١) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج٢،١٩٥٥ ، صفحة ١٠٣.

وهناك اختلاف حول المدة التي كانت توضع فيها الجثة في النطرون حيث يظن ان المادة اللازمة لذلك كانت نصف المدة التي ذكرها الكتاب القدماء في حين كانت الاجراءات والطقوس الاخرى تتم في النصف الثاني من المدة .

وفي حالة استخراج الاحشاء الداخلية من الجسم، كما في الطريقة الاولى فقد كانت تلك الاحشاء تعالج بمواد معينة وتلف على حدة وتوضع في تجاويف الجسم ثانية او توضع في اوان فاخرة تناسب صاحبها وتخلط بمواد تحفظ كيانها وتمنع فسادها وتوكل ابناء الاله حور الاربعة لرعايتها وتوضع الى جانب الجسم .

اما المواد الاساسية المستعملة في التحنيط والتي تقوم بامتصاص دهنيات الجسم وشحومه وعفونته وتكسبه النقاء والجفاف والرائحة الزكية فالمعروف منها حتى الان النطرون وشمع العسل والقرفة والكاسيا والبصل وانواع من الراتنجات الصمغية وحبوب العرعر وزيته وزيت الارز وزيت الزيتون والمر والمستكة والحناء وغيرها. وكانت هذه المواد تخلط بنسب متفاوتة وطرق لاتزال غامضة تحيطها الاسرار.

وبعد ان تنتهي عملية معالجة الجثة وتحنيطها وترفع من حمامها يضيب الجسم بمختلف الطيوب ويدهن بالعطور ويلف الفم بالكتان وكذلك الاذنان والعينان احياناً وتلف عضلات الجسم كذلك بالكتان المغموس بالمواد الراتنجية وقد تصب بعد ذلك على الجسم كله مواد راتنجيه حتى تتماسك وتسد مساماته فلا تتسرب اليه الرطوبة وتوضع تمائم بين اللفائف مناسبة، وتوسد الجثة بعد ذلك في تابوتها الخشبي وتوضع معها حلي الميت.

ولم يكن للخطوات السابقة في اتمام عملية التحنيط من اثر، في عرف المصريين الا بفضل مايتلى عليها من تراتيل السحر والدين عند الوفاة وعند الغسل والتطهير وعند الدفن وعند تقديم القرابين واجراء الصلوات.

## المبحث السادس

### طريقة مقاضاة الموتى في العالم السفلي :

ذكرنا في نهاية حديثنا عن المعتقدات الدينية عند المصريين القدماء أنهم اعتقدوا بأن اله الارض والهة السماء نوت انجبا الهين ذكرين هما اوسيريس وسيث وانجبا ايضاً الهتين هما ايسيس واختها نفتيس وتذكر احدى الاساطير المصرية انه كان للاله اوسيريس فضل كبير على سكان مصر لأنه هو الذي علمهم فنون الزراعة ومختلف الحرف والصناعات . ولذلك فقد صار اوسيريس موضع اهتمام الناس وهذا ما اغاظ اخاه سيث الذي عزم على تدبير مؤامرة لأغتياله وتذكر الاسطورة ان سيث صنع لأخيه اوسيريس صندوقاً جميلا مثقوباً على قدر حجمه ولما دخل فيه اخوه القى غطاء الصندوق عليه واحكم اغلاقه ثم رماه في النهر الذي حمله بدوره إلى مياه البحر .

وراحت زوجته تبحث عنه في كل مكان وفي نهاية المطاف استطاعت ايسيس العثور على الصندوق الذي كان يحتوي على جثة زوجها فجاءت به واخفته في الدلتا وفي تلك الاثناء وضعت ايسيس ابنها الاله هورس الذي اخفته احدى الهات الدلتا خشية ان ينتقم منه الاله سيث قاتل ابيه . غير ان سيث عثر على الصندوق فأخرج منه جسم اخيه وقطعه إلى قطع عديدة رمى كلا منها في مكان في وادي النيل . ولما علمت زوجته ايسيس بذلك راحت تغير تلك الاجزاء المتناثرة فدفنت رأسه مثلا في مدينة ابيدوس ورقبته في مدينة هليوبوليس وهكذا فعلت بالاجزاء المتبقية الاخرى . وجدير بالذكر ان الاله اوسيريس صار الها للموتى وكان مقر عبادته في مدينة ابيدوس . وهناك رواية اخرى لاسطورة اوسيرس مفادها انه بعد ان عثرت ايسيس على جثة زوجها امر اله الشمس رع الاله انوبيس ان يقوم بتحنيطه وان زوجته رفرفت بجناحيها فوقه فعاد إلى الحياة ثانية وانه بعد ذلك صار ملكاً على الاموات . وتروي الاساطير المصرية ايضاً ان هورس اراد الانتقام

لأبيه اوسيريس من عمه سيث وانه استطاع بالفعل ان يقتله بعد صراع عنيف وبذلك صار هورس نموذجاً ومثالا للابن المخلص في التضحية من اجل ابيه .

وعلى هذا النحو تبلورت العقيدة الخاصة باله الاموات اوسيريس وهي عقيدة احتلت حيزا كبيرا في حياة المصريين القدماء اذ اصبح الموتى هم الشعب الذي يحكمه الاله اوسيريس وتصوروا ان تحت امرته مردة يحرسون ابوابه وهم يعملون في الوقت نفسه قضاة يحاكمون الموتى في العالم الاخر . وتصور المصريون القدماء ايضا ان في عالم الاموات قاعة للعدل فيها الاله اوسيريس ومعه الثلاثة والاربعون ماردا أو قاضياً لهم رؤوس على هيئة الثعابين او الصقور والعقبان والكباش (١) . وفي يد كل منهم سكين وقد سمي هؤلاء القضاة بأسماء مرعبة منها على سبيل المثال لا الحصر اكلة الدماء وانفاس اللهب وارجل النار وغيرها . وقد وصلنا من الاسرة الثامنة عشرة صورة تمثل اوسيريس اله الموتى يقف امام الميزان التي يوضع فيها قلب المتوفي الذي كان عليه ان يثبت للقضاة بأنه لم يسرق ولم يرتكب خيانة زوجته او معصية ..... فاذا ما أثبت الميزان براءته عندئذ يأخذ الاله هورس ؛ كاتب الالهة في العالم السفلي ، بيد المتوفي لينضم الى رعايا ابيه اوسيريس اله عالم الاموات .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦١٤ لسنة ١٩٧٩

